ألبير كامو

السقطة

رواية

ترجمة

أنيس زكي حَسَن

دراسة ومراجعة

د. مصطفى عامر

الكتاب: السقطة (رواية)

الكاتب: ألبير كامو

ترجمة: أنيس زكي حَسَن

دراسة ومراجعة: د. مصطفى عامر

الطبعة: ٢٠٢٢



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

كامو، ألبير

السقطة (رواية) / ألبير كامو، ترجمة / أنيس زكي حَسَن، دراسة ومراجعة / د. مصطفى عامر

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٠٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٦ – ٤٢٠ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٧٧٣٢ / ٢٠٢١

السقطة

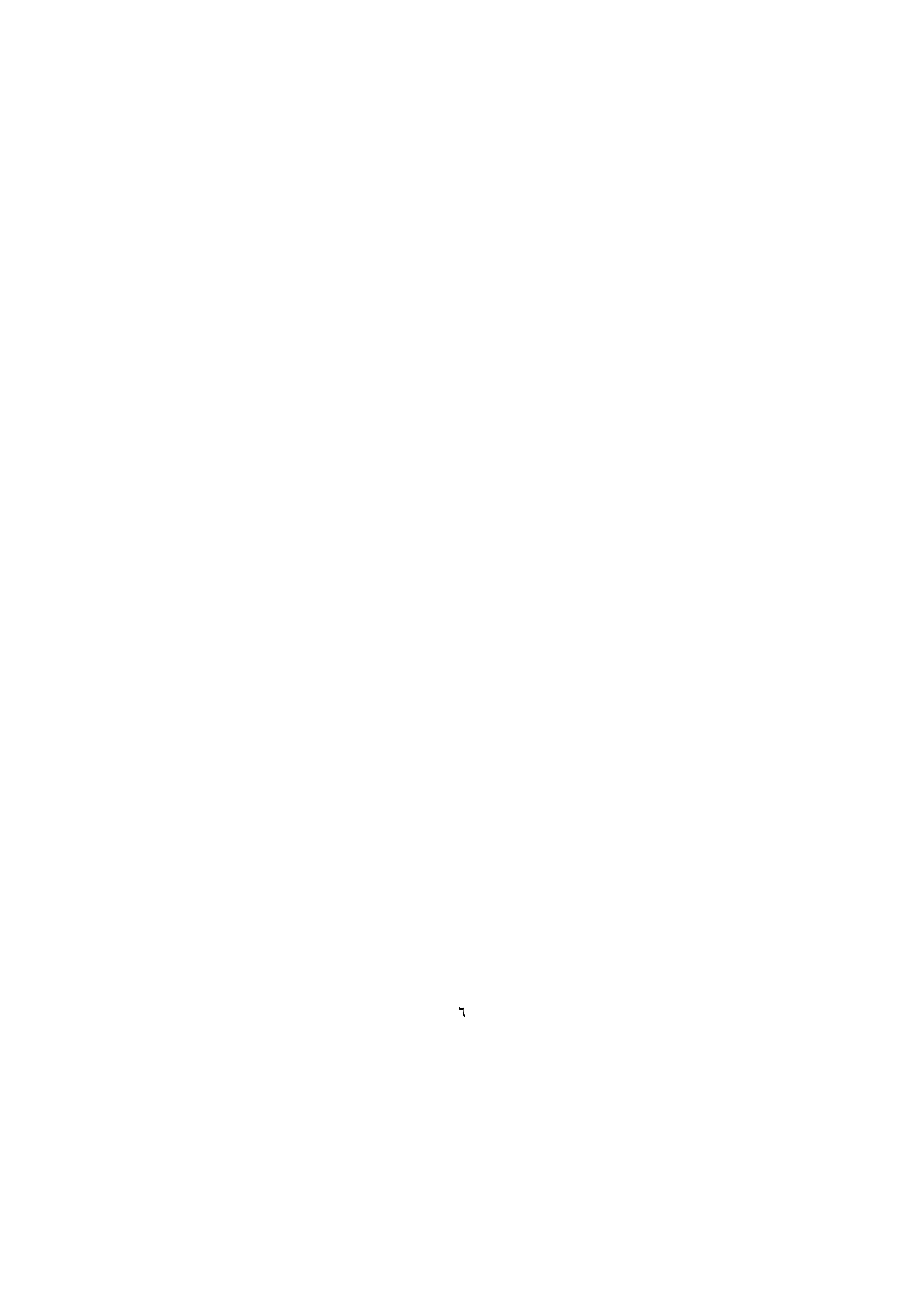
رواية



مقدمة

"كان البعض يشعرون بالإهانة شعورًا فظيعًا حادًا، لأنهم كانوا قد اتخذوا نموذجًا من مثل هذه الشخصية اللا أخلاقية التي تدعى – بطل عصرنا – ولاحظ آخرون بذكاء أن المؤلف كان قد صوَّر نفسه ومعارفه. إن بطل عصرنا، أيها السادة، هو في الواقع صورة، ولكنها ليست صورة فرد، وإنما هي مجموع شرور جيلنا كله، في أكمل تعبير عنه...".

ليرمنتوف



كامو وثنائية الأضداد العبثية

ولد ألبير كامو في السابع من نوفمبر في موندافي في الجزائر، وكانت عائلته تنتمي إلى "الأقدام السوداء" أي المستوطنين الفرنسيين في الجزائر وكانت فقيرة، حيث توفي والده أثناء الحرب العالمية الأولى،فعاش مع والدته التي كانت مصابة بالصمم وكانت تعمل في تنظيف البيوت وكانت أمية، في منطقة لمحدودي الدخل في الجزائر. درس كامو في مدرسة البلدية المحلية وأظهر في المدرسة تفوقا ملحوظا، فلفت انتباه مدرسه لوي جيرماين الذي نصحه بالتقدم لمنحة دراسية لاستكمال دراسته الثانوية، فالتحق عام ١٩٢٣ بمدرسة لي سي بوجو التي ضمّت تلاميذ من خلفيات مختلفة، وبعدها قُبِل في جامعة الجزائر حيث درس الفلسفة وبحلول عام ١٩٣٦ كان كامو قد حصل على الدراسات العليا في قسم الفلسفة.

وأثناء سنوات دراسته بالجامعة، انضم للحزب الشيوعي ثم لحزب الشعب الجزائري، وكان من أبرز المدافعين عن الحقوق الفردية فوقف ضد الاستعمار الفرنسي وكان يدافع عن حق الجزائريين في دخول السياسة وفي العمل، ليرتبط اسمه لاحقًا بحركة اللاسلطوية الفرنسية.

وبعد أن أنهى دراسته الجامعية قام بنشر أول كتبه «الوجه والقفا» وهو مجموعة قصص قصيرة ذات طابع وجداني، ثم أصدر كتابه الثاني «أعراس» له نفس الطابع القصصي الوجداني، ثم بدأ اسمه يلمع على المستوى الأدبي بعد صدور روايته الأولى «الغريب» سنة ١٩٤٢م، وبعد ذلك توالت مؤلفاته تباعا

فنشر رواية «أسطورة سيزيف» و«الخطأ» و«كاليجولا» و«الطاعون« و«حالة حصار» و«العادلون» و«الإنسان المتمرد».. إلخ.

وفي بداية الحرب العالمية الثانية انضم للمقاومة الفرنسية بهدف المساعدة على تحرير فرنسا من الاحتلال النازي، فالتقى بجان بول سارتر أثناء فترة خدمته العسكرية، وفي عام ١٩٤٥ كان واحدًا من بين قلة قليلة من صحفيي دول الحلفاء ممن يدينون استخدام الولايات المتحدة للقنبلة الذرية في هيروشيما، كما كان ناقدًا حادًا للنظرية الشيوعية، الأمر الذي قاده فيما بعد إلى الخلاف مع سارتر.

تزوج كامو وطلق مرتين في شبابه ليؤكد بعدها رفضه لمؤسسة الزواج، ففي ١٦ يونيو عام ١٩٣٤ تزوج من سيمون يي التي كانت مخطوبة من قبل لصديقه ماكس بول فوشيه، ودام زواجهما حتى يوليو عام ١٩٣٦، ثم تزوج كامو مرة أخرى في ٣ ديسمبر عام ١٩٤٠ من فرانسين فاج وقد كانت عازفة بيانو وعالمة رياضيات التقى بها عام ١٩٣٧ وأنجب منها في ٥ سبتمبر عام ١٩٤٥ توأما هما كاثرين وجين، إلا أنه وبالرغم من حبه لزوجته لم يعد يؤمن بمؤسسة الزواج ، فقد نشبت الخلافات بينهما كثيرا.

فاز ألبير كامو بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٥٧ وتوفي في ٤ يناير عام ١٩٦٠ في بيرجندي في فرنسا على إثر حادث سير ، وقد كان في السادسة والأربعين من عمره، وعلى الرغم من اعتقاد البعض بأن الحادث كان مدبرًا إلا أنه لا يوجد دليل على ذلك.

ثنائية الأضداد

تفصح روايات كامو عن نزعة عبثية يقابلها تأكيد دائم على ضرورة معايشة المرء لبيئته معايشة مادية، كما يؤكد دائما على علاقة التضاد بين «رهبته للموت» وبين «ولعه بالحياة» ملتمسًا في التوفيق بين التجربتين طريقا وسطا، وقد أفضى ذلك الخلط بين الانتشاء والإحباط في آخر الأمر إلى التمرد، ولقد أعطى قراء كامو أهمية كبيرة لما اتسمت به نظرته التشاؤمية من حدة وعنف، ومن أبرز سمات هذه النزعة أنها تبلورت في جوهرها على خلفية من الإشراق الذي يتسم به إقليم البحر المتوسط، لقد أولى كامو الاستجابة الشخصية للسعادة أهمية كبرى فجعلها محورًا لما تناوله من موضوعات، حيث قال: "عندما أحاول اكتشاف أهم ما يقبع في نفسي ويتأصل في ذاتي فلا أجد إلا اشتياقا للسعادة، كما أجد في صميم مؤلفاتي إشراقا لا يخبو وضوءًا لا ينطفئ".

وأي قراءة لأدب البير كامو تكشف عن وجود ثنائية الأضداد، فهو يتكلم عن الشمال والجنوب، عن الخير والشر، عن الجمال والقبح، عن الفقر والغنى، عن الشمس والظل، عن المنفى والملكوت، وهذه الثنائية تولد قضية في أدبه، ويريد بها أن يدافع عن الحرية في وجه الظلم وعن العدالة في وجه الطغيان.

ولم يكن كامو أول من يتوجس من فكرة الموت، وهذه معضلة كبرى عايشها في حياته جعلته يكره كل أشكال المرض الذي عادة ما يمهد للموت، لقد تعلق بالحياة إلى درجة لا يمكن تصورها، كما لم يكن أول من يتوق إلى انتزاع

السعادة من اللحظة العابرة بيد أن الذي يفرقه عن غيره هو أن حاجته للسعادة مقرونة بحاجة أخرى لا تقل عنها قوة وإلحاحًا وهي شعوره بالمسؤولية تجاه الإنسانية المعذبة.

رواية "السقطة"

تحكي رواية السقطة على لسان جون بابتست كليمنس قصة المحامي الباريسي الناجح، الذي يتبنى قضايا المعدمين، والذي يتودد إلى الضعفاء والمهمشين. يسرد المحامي كيفية وأسباب سقوطه من أعلى الدرجات الاجتماعية إلى أحطها كما لو يستحضر سقوط الانسان من جنة عدن. وعبر هذا السقوط الذي يشكل الثيمة الرئيسة للرواية. يبدأ المحامي بسرد حكاية نجاحه، ذلك النجاح التقليدي المتمثل فيما صاغه المجتمع، الناس، السلطة، أو أي مؤثر خارجي ليس نابعًا من الفرد ذاته.

والإشكال في هذه الفكرة ليس في إقصائها للفرد على سبيل الجماعة، وإنما في افتراضها لوجود هذا المعيار الجمعي الناتج عن وجود معنى موضوعي لهذه الحياة، وهذا ما تتفق الفلسفات الوجودية على رفضه بالرغم من اختلافها مع بعضها البعض، فالوجوديات تتفق على أن الوجود يسبق المعنى، وعليه فإن جوهر الحياة ليس أمرًا يستدعي البحث عنه، وإنما هو شيء يخلقه الفرد لذاته من أجل عيش حياة غير عبثية. وقد تجلت هذه الفكرة في أكثر من موضع، منها حوار جون كليمنس الافتراضي: "هل الجميع؟ ستجيب نعم بالطبع، كيف لك أن ترفض ذلك. حسنًا سنعطيك ذلك، هذه وظيفة، وهذه عائلة، وهذه عطل وأوقات فراغ منتظمة، ولكنني لست عادلًا هكذا، ففي النهاية هذه طريقتي للحياة السوية. القضية دائمًا مَن يقلد الآخر؟".

ثم يسترسل مشيرًا لنفسه وتجربته الحياتية الناجحة في باريس كمثال لهذه العبثية، إذ اضطره المجتمع لأن يكون ممثلًا، يساعد المكفوفين ليعبروا الشارع ثم يرفع لهم قبعته عندما يشكروه وكأنهم يرونه، وغيرها من المواقف اليومية التي تشكل حياته والتي يكتشف منها أنه يعيش حالة من الرياء، بل حالة من غياب الذهن، وتسليم العقل لمختلف التنميطات الاجتماعية، فما يدمر الفرد هو التلازم بين الالتزام بما يقولبه المجتمع، والخوف من إطلاق الأحكام علينا في حال الخروج عن هذا القالب. والحياة المتذبذبة بين هاتين القوتين هي حياة هشة وعرضة دائما للسقوط.

فكما ذكر المحامي جون أن أحد أسباب سقوطه هي تلك الحادثة البسيطة عند إشارة المرور حين طلب من أحدهم أن يبتعد عن الطريق بعد أن تعطلت سيارته، وطرح المحامي أرضًا وذهب، تاركًا جون خلفه مثقلًا بالإهانة بعد أن تهشمت صورته المجتمعية التي ظل يلمعها لسنوات، خوفًا وهروبًا من أحكام الناس الدائمة والتي لم تنعقد جلسات النطق بها أبدًا ، ولذلك يجد جون كليمنس فكرة يوم القيامة أو يوم الحساب مسألة لا ينبغي لها أن تتسبب بأي ذعر لأي أحد، فالأحكام تُطلق عليك بشكل دائم ومستمر يوميًا ومن العشرات أو حتى المئات عبر هذين العنصرين، الالتزام والأحكام.

وبعد حادثة الجسر وضحكات المرأة التي قفزت في نهر السين وسمع جون ضحكاتها تخبو في اتجاه النهر، يستنتج جون كليمنس أن المسألة الوحيدة الجديرة بالتفكير هي الانتحار، فنحن دائمًا أكثر إنصافا وكرما تجاه الموتى لأننا لا نملك أي التزام تجاههم، وأنهم برحيلهم يحرروننا من جميع التزاماتنا الاجتماعية والأخلاقية تجاههم.

وهكذا يتضح أن تلك النزعة الإنسانية ثيمة أساسية في أعمال كامو، إذ يعودُ المحامي التائب في الفقرة الأخيرة من اعترافاته إلى لحظة إنتحار فتاة مجهولة بينما كان يعبرُ الجسر منتشيًا بغرامياته يراها مرتدية الأسود إذ يلفت نظلاه شكلها، لكنه يمضي وما إن يبتعدَ حتى يتناهى إليه صوت ارتطام الجسم بالماء، والمؤثر هو ما يتمناه الراوي بأن يعيشَ هذه اللحظة مرة أخرى ليتمكن من إنقاذ الفتاة وفي ذلك يكون إنقاذًا لنفسه من تأنيب الضمير.

هنا تكمنُ رسالة كامو عن ترابط المصير البشري وأن ما يعطي القيمة والمعنى للأفكار هو حياة الإنسان، ولا تضيفُ البطولةُ شيئا إلى البشرية إذا كلفتها الدمار والخراب، وما يميز كامو عن غيره هو رفضه للتدجين والتنميط، وإدراكه لقسوة ومرارة أن يصبحَ الواحدُ إنسانًا على حد تعبير بطل مسرحيته كاليجولا.

وفي إبداع كامو عمومًا نجد رغبة دائمة للخروج من تلك المعادلة التي وإن قُدّمت بشكل حتمي، لكن تبقى الإرادة في عدم الخضوع لها طريقا لمنح معنى للحياة والسلوك الإنساني فيها، وتحديدًا لنقض الشرور في دواخل الإنسان والمسببة لسلوكه أو الناتجة عنه. والفكرة التي تقوم عليها «السقطة» وهي أنّنا جميعًا مذنبون أمام بعضنا البعض ليست حتمية. لا يقدّمها كامو في روايته القصيرة إلا كحل مرهون للشر في دواخلنا ويمكن الثورة عليه بإرادة واعية.

د.مصطفى عامر

الإغماء اللذيذ

هل لي، يا سيدي، أن أعرض عليك العون، دون أن أكون متطفلًا؟ أخشى أنك لن تستطيع أن تعبر عما تريد للقرد الذي يتحكم في مصير هذا المكان. والواقع إنه لا يتحدث غير الهولندية، وإذا لم تخولني بالتزام قضيتك فإنه لن يخمن أنك تريد شراب الجن. والآن، بوسعي أن أرجو أن يكون قد فهمني، فهزة رأسه لابد أن تعني أنه استسلم لرأيي. إنه يخطو، والحق أنه يسرع بتأن وترو. أنت محظوظ، فلم يتأفف. لأنه حين يرفض أن يخدم أحدًا لا يفعل شيئًا غير أن يتأفف. ولذلك فلا أحد يصر. والسيطرة على المزاج هي من مزايا الحيوانات الضخمة. سأنسحب الآن، يا سيدي، سعيدًا، لأنني استطعت أن أفيدك. أشكرك. كنت سأقبل لو لم أكن أخشى أن أضايقك. أنت شديد اللطف. حسنًا، سأحضر قدحي بجانب قدحك.

أنت على حق. إن صمته لهائل الصخب، إنه صمت الغابة البدائية الحافلة بالتهديد. يدهشني أحيانًا عناده في الحط من شأن اللغات المتحضرة. إن عمله يتألف من خدمة البحارة من مختلف الجنسيات، في هذه الحانة في أمستردام، الحانة التي يسميها – لا أحد يدري لماذا – مدينة المكسيك؟ ومع كل هذه الواجبات، أفلا تظن أنه يخشى أن يكون جهله غباء؟ تصور إنسان (كرومانيون) محبوسًا في برج بابل! لا شك في أنه سيشعر بالضيق. ومع ذلك، فهذا لا يدرك شيئًا عن منفاه، وإنما يستمر في دنياه المعتادة دون أن يضايقه شيء. ومن العبارات النادرة التي سمعتها منه، بين عباراته القليلة جدًا، تلك التي تقول لك أن تأخذ الشيء أو تتركه. فماذا كان عليك أن تأخذ أو تترك صديقنا نفسه، بلا شك. وأعترف بأن مثل هذه المخلوقات تجتذبني؛ فكل من يهمه البحث في أمر الإنسان، سواء كان ذلك حرفته أو هوايته،

ليشعر بالحنين إلى البشر البدائيين، إلى القرود، فهي لا تملك أية دوافع غير مباشرة، على الأقل.

ولكن مضيفنا، في الواقع، يملك بعضها، رغم أنه يكرهها في أعماقه. وكنتيجة لعدم فهمه ما يقال في حضوره، اتخذ لنفسه ميولًا تشككية. وهذا يفسر ما يلوح عليه من كبرياء حساسة، فكأنه كان على الأقل يشك بأنه لا بد أن يكون هنالك شيء في غير محله بين البشر. وهذا الميل لا يسهل بحث أي شيء معه مما لا يخص عمله. لاحظ، مثلًا، على الجدار الخلفي، فوق رأسه، ذلك المستطيل الخالي الذي يدل على مكان صورة أنزلت من موضعها. كانت هنالك صورة حقًا، وكانت صورة مثيرة للاهتمام، من الأعمال الرائعة الحقيقية. حسنًا، لقد كنت حاضرًا حين استلمها صاحب المكان، وكذلك حين تخلى عنها. ولقد فعل ذلك، في الحالتين، بنفس الشك، وبعد أسابيع من التفكير. وأنت، بهذا الخصوص لا بد أن تقر بأن المجتمع قد أفسد البساطة الصريحة في طبيعته.

تذكر أنني لست أحكم عليه هنا. وأعتقد أن هنالك مبررًا لشكه، وعلي أن أشاركه إياه، إذا كانت طبيعتي المفتوحة للآخرين، كما ترى، لا تتعارض مع ذلك. أنا ثرثار، بئس ذلك، وأصنع الأصدقاء بسهولة. وبالرغم من أنني أعرف كيف ألزم حدودي، إلا أنني أغتنم أية فرصة، كل الفرص. وحين كنت أعيش في فرنسا كنت أسعى إلى توثيق أواصر الصحبة مع كل شخص ذكي كنت أقابله. فإذا كان ذلك حماقة... آه، أراك تبتسم لأنني أقول – إذا – وأنا أعترف بضعفي نحو هذه النقطة، وبميلي إلى الكلام المنمق بصورة عامة. صدقني إذا قلت لك أنني أنتقد هذا الضعف في نفسي. إنني أدرك أن التعلق بارتداء الثياب الداخلية الحريرية لا يعني بالضرورة أن قدمي المرء قذرتان. ومع ذلك فإن الإسلوب، كالحرير الخالص، غالبًا ما يخفي الأكزيما. وأنا أعزي نفسي بأن أقول لها بعد كل ذلك أن أولئك الذين يقتلون اللغة

ليسوا أنفسهم بأنقياء. بالطبع، لنشرب مزيدًا من الجن.

هل سنبقى طويلًا في أمستردام؟ إنها مدينة جميلة، أليس كذلك؟ هنالك صفة لم أسمعها لوقت ما، منذ أن غادرت باريس في الواقع، قبل سنوات. ولكن للقلب ذاكرته، ولم أنس شيئًا عن عاصمتنا الجميلة، ولا عن أرصفتها. إن باريس هي سراب العين بحق، إنها مسرح رائع ترى في مشهده أربعة ملايين من الأشباح. خمسة ملايين تقريبًا في الإحصاء الأخير؟ كيف، لا بد أنهم تضاعفوا. ولكن ذلك لا يدهشني، فقد لاح لي دائمًا أن لأبناء وطني ميلين: أولهما نحو الأفكار، والآخر نحو الجماع، دون أن يكون لذلك عذر أو سبب كما يقولون. ومع ذلك، دعنا لا نتهمهم، فليسوا الوحيدين، وإنما تسير أوروبا كلها في هذا الركب. وإنني لأفكر أحيانًا ما سيقوله عنا مؤرخو المستقبل؛ فعبارة واحدة تكفي لوصف الإنسان الحديث: كان يجامع ويقرأ الصحف. وبعد هذا التعريف القوي لن يكون ثمة مجال لمزيد من البحث، إذا جاز لي أن أقول ذلك.

ولكن، ليس الهولنديون كذلك. فهم أقل تحضرًا! لديهم الوقت – فقط انظر إليهم. ماذا يفعلون؟ حسنًا، هؤلاء السادة الجالسون هناك يقتاتون على جهود أولئك السيدات الجالسات هنالك. وكلهم، بالإضافة إلى ذلك، الذكور والإناث، مخلوقات من الطبقة المتوسطة جدًا، وقد جاءوا إلى هنا، كالعادة، بدافع الهوس الأسطوري أو الحماقة، بكثير جدًا، أو قليل جدًا، من الخيال، باختصار. وبين حين وآخر يستمتع هؤلاء السادة بالعبث بالسكاكين أو المسدسات، ولكنهم لا يصلون إلى حد التفكير بالاهتمام بذلك، وإنما يؤدي بهم الدور الذي يلعبونه إلى ذلك، وهذا هو كل ما في الأمر. وهم يموتون رعبًا بينما هم يطلقون الرصاص. ومع ذلك فإنني أجدهم أكثر أخلاقية من الآخرين، أولئك الذين يقتلون في صميم العائلة عبر الاحتكاك. ألم تلاحظ أن مجتمعنا منظم لهذا النوع من القتل؟ لقد سمعت طبعًا عن تلك الأسماك

الصغيرة في أنهار البرازيل، التي تهاجم السابح الساهي بالآلاف وتزيله من الوجود بعضاتها الصغيرة السريعة في دقائق، تاركة هيكلًا عظميًا عاديًا؟ حسنًا، مجتمعهم هو كذلك: "هل تريد حياة جيدة نظيفة كالآخرين؟" وأنت تقول: أجل، طبعًا. وكيف يستطيع أحد أن يقول: كلا ؟" حسنًا، ستهلك. هو ذا عمل، وعائلة، وفعاليات منظمة للاستمتاع."وتهاجم الأسنان الصغيرة اللحم، حتى العظام. ولكنني لست عادلًا، لأنني يجب ألا أقول: مجتمعهم. إنه مجتمعنا نحن، وهي مسألة: من الذي سيُهلك الآخر؟

هو ذا شرابنا أخيرًا، نخب سعادتك. أجل، لقد فتح القرد فمه ليدعوني دكتورًا، وفي هذه البلدان تجد الجميع دكاترة أو أساتذة. وهم يحبون إظهار الاحترام، بدافع اللطف، وبدافع التواضع. وليست الكراهية بالعادة الاجتماعية بينهم، على الأقل. ثم إنني لست دكتورًا. لقد كنت محاميًا، إذا كنت تريد أن تعرف ذلك، قبل أن أحضر إلى هنا. أما الآن، فأنا قاض تائب.

ولكن، اسمح لي أن أقدم لك نفسي: جان بابتيست كلامانس[1]، في خدمتك. سرني أن أعرفك. أنت رجل أعمال، طبعًا؟ نوعًا ما؟ جواب بديع! وعادل أيضًا، فلسنا في جميع الأشياء غير "نوعًا ما". اسمح لي الآن أن ألعب دور البوليس السري. أنت في مثل عمري نوعًا ما. وفيك ملامح غرور رجل الأعمال الذي هو في الأربعين من العمر الذي كان قد رأى كل شيء نوعًا ما. وأنت حسن الهندام نوعًا ما، أي كبقية الناس في بلادنا، ويداك ناعمتان. فأنت بورجوازي نوعًا ما! ولكنك بورجوازي مثقف! وابتسامك عند استخدام كلمة "إذا" الشرطية، في الواقع، يثبت أنك مثقف ضعف ذلك، لأنك تدركها أولًا، ولأنك تشعر بالسمو عليها، ثانيًا. وأخيرًا فأنا أمتعك، وهذا يعني – دون أن يكون في الأمر غرور – أنك مفتوح الذهن. ولهذا

[1] ترجمة الاسم هي: يوحنا المعمدان، ومن الواضح أن كامو يتعمد ذلك.

فأنت نوعًا ما.. ولكن لا أهمية لذلك. المهن تلذ لي أكثر مما تفعل الطوائف. اسمح لي أن اسألك سؤالين، ولا تجب إذا كنت ستعتبرهما غير حصيفين. ألديك أية ممتلكات؟ البعض؟ هذا: حسن. هل شاركت الفقراء فيها؟ كلا؟ فأنت إذنً ما أدعوه أنا: كافر بالقيامة. وإذا لم تكن قد قرأت الكتاب المقدس فإنني أقر بأن ذلك لن يكون مفهومًا لديك. ولكن، أتفهم ذلك؟ أنت تعرف الكتاب المقدس إذن؟ حقًا إنك لتلذ لي.

أما بالنسبة لي.. حسنًا، احكم لنفسك. فبقامتي وأكتافي وهذا الوجه الذي طالما قيل لي إنه يلوح خجولًا، ألوح كلاعب كرة الرجبي، أليس كذلك؟ أما إذا حكمت علي وفقًا لحديثي فلا بد أن أوصف ببعض البراعة. فربما كان البعير الذي أتاح الشعر لمعطفي مصابًا بمرض جلدي، ولكن أظافري نظيفة، وأنا أيضا متشكك، ومع ذلك فإنني أثق فيك دون تحفظ، فقط على أساس ملامحك. وأخيرًا، فعلى الرغم من إنني أحسن التصرف، وأتحدث برقة، إلا أنني أرتاد حانات البحارة في الزيديك. هيا، لا تمض في العناد، فحرفتي مزدوجة، وهذا هو كل ما في الأمر. كالكائن البشري. لقد أخبرتك الآن، فأنا قاض تائب.

هنالك شيء واحد فقط بسيط في مسألتي: إنني لا أملك أي شيء. أجل، لقد كنت غنيًا، كلا، فلم أشارك الفقراء في ثروتي فماذا يثبت هذا؟ وأنا أيضًا لم أكن أؤمن بالقيامة... أوه، أتسمع أصوات النفير في الميناء وهي تنذر بالضباب؟ سيكون هنالك ضباب هذه الليلة عند الزويدرزي.

أمزمع أنت على الذهاب؟ سامحني لأني أخرتك.. كلا، أرجوك، لن أدعك تدفع. إنني أشعر وكأنني في بيتي، في حانة مدينة المكسيك هذه، وقد سرني على الأخص أن أستقبلك هنا. سأكون هنا غدًا بالتأكيد، كعادتي في كل مساء، ويسرني أن أقبل دعوتك.

طريق عودتك؟.. حسنًا، ولكن، إذا لم يكن لديك أي مانع فإن أسهل الأمور

بالنسبة لي هو أن أصحبك إلى الميناء، ومن ثم فإذا سرت في الحي اليهودي فإنك ستشاهد تلك الشوارع المشجرة الجميلة التي تخطر فيها الحافلات الطافحة بالزهور والصخب، وفندقك هو في أحد تلك الشوارع، واسمه الدنمارك. أنت أولًا، أرجوك. إنني أعيش في ذلك الحي، وأستطيع أن أكافح ميلي الطبيعي الذي يدفعني إلى مرافقة إحداهن. وحين أرى وجهًا جديدًا فإن شيئًا في نفسي ينذرني: "ببطء! خطر!" وحتى حين يكون الإغراء على أشده، أكون محترسًا.

أتعرف أنه قد حدث في قريتي الصغيرة أثناء حملة انتقامية أن ضابطًا ألمانيًّا سأل سيدة عجوزًا بكل لطف أن تختار أحد ولديها ليتم إطلاق الرصاص عليه كبديل؟ تختار! – هل في وسعك أن تتصور ذلك؟ هذا؟ كلا، ذاك. وتراه يذهب. دعنا لا نستمر في الحديث عن ذلك، ولكن، صدقني يا سيدي أن أية دهشة يمكن أن تكون متوقعة. كنت أعرف قلبًا نقيًا كان يرفض الشك، وكان مسالمًا متعلقًا بالحرية، وكان يحب البشرية كلها، وكذلك كان يمنح الحيوان نفس الحب. كان شخصًا غير اعتيادي بالتأكيد. حسنًا. ففي أثناء الحروب الدينية الأخيرة في أوروبا عاد إلى الريف متقاعدًا وكتب على بابه: "ومهما كان المكان الذي أتيت منه، تعال وأنت على الرحب والسعة" فمن الذي استجاب لتلك الدعوة النبيلة؟ رجال المقاومة، الذين احتلوا البيت وبقروا أمعاء صاحبه.

أوه المعذرة يا سيدتي! ولكنها لم تفهم كلمة من ذلك على كل حال.

كل هؤلاء الناس... خارج بيوتهم في وقت متأخر بالرغم من هذا المطر الذي لم ينقطع خلال أيام. هنالك شراب الجن لحسن الحظ، بريق النور الوحيد في هذا الظلام. أتشعر بالنور الذهبي النحاسي الذي يضيئه فيك؟ إنني أحب التمشية في المدينة مساءً مع دفء الجن. إنني أسير ليالي بأكملها، وأحلم أو أتحدث مع نفسي بدون نهاية. أجل، مثل هذا المساء– وأخشى أن أصدع رأسك قليلًا. أشكرك. إنك

شديد اللطف. ولكنه الفيض، فحالما أفتح فمي تبدأ العبارات بالتدفق. ثم أن هذا البلد يلهمني. إنني أحب هؤلاء الناس الذين يملأون الأرصفة الجانبية، محصورين في فراغ صغير بين البيوت والقنوات، يعزلهم الضباب والبقاع الباردة والبحر المتبخر كقطعة الغسيل المبللة. إنني أميل إليهم، لأنهم مزدوجون، إنهم هنا وفي مكان آخر.

أجل حقًا، فعند سماعك خطواتهم الثقيلة على الرصيف الرطب، ورؤيتهم وهم يتحركون بصعوبة بين دكاكينهم المملوءة بالأسماك البحرية المتلألئة والجواهر الملونة، بلون أوراق الأشجار الذابلة، تظن أنهم هنا هذا المساء. أنت كالآخرين، تعتبر هؤلاء الناس الطيبين قبيلة من النقابيين والتجار الذين يحصون نقودهم الذهبية مع فرصهم في الحصول على الحياة الخالدة، والذين تتألف غنائيتهم الوحيدة من تلقي بعض الحصص في التشريح، بدون أن يخلعوا قبعاتهم عريضة الحافات! أنت مخطىء. إنهم يسيرون في الطريق معنا، كن واثقًا، ولكن انظر أين هي رؤوسهم؟ في ذلك الضباب المركب من النيون والجن والعطر المتدفق من لوحات الدكاكين فوقهم.

هولندا هي حلم يا سيدي، حلم من الذهب والدخان – أشد دخانًا في النهار وبريقًا في الليل. وفي الليل والنهار يعيش في ذلك الحلم كثيرون من هؤلاء ممن يشبهون لوهنغرن، راكبين بصورة حالمة دراجاتهم السوداء ذات العوارض العالية، كأغاني الجنائز، سائرين دائمًا عبر الأرض كلها، حول البحار، على طول القنوات. رؤوسهم في سحاباتهم التي هي بلون النحاس، يحلمون وتسير دراجاتهم في دوائر، يصلون، سائرين في نومهم في بخار الضباب المتلألئ، ولم يعودوا موجودين هنا. لقد ذهبوا الآف الأميال بعيدًا، نحو جاوه، الجزيرة السعيدة. إنهم يصلون لآلهة أندونيسيا العابسة التي زينوا بها جميع نوافذ دكاكينهم والتي تتطاير الآن فوقنا بلا هدف قبل أن تهبط، كالقردة البديعة، فوق اللوحات والسطوح البارزة لتذكر أولئك المستوطنين النازحين الذين يحنون إلى بلادهم بأن هولندا ليست أوروبا التجار فقط، وإنما البحر، البحر

الذي يؤدي إلى سيبانغو والجزر التي يموت فيها البشر مجانين سعداء.

ولكنني أطلق العنان لنفسي! إنني أترافع في قضية! المعذرة. العادة يا سيدي، والاهتمام، وكذلك رغبتي في أن أجعلك تفهم هذه المدينة تمامًا، وقلب الأشياء! لأننا في قلب الأشياء هنا. هل لاحظت أن قنوات أمستردام المركزية تشبه ساحات الجحيم؟ جحيم الطبقة المتوسطة، طبعًا، التي تعيش فيها الأحلام السيئة. وحين يأتي أحد من الخارج، وبينما يسير تدريجيًا عبر هذه الساحات، تصبح الحياة، وبالتالي جرائمها، أشد كثافة وظلامًا.

ونحن الآن في الساحة الأخيرة، ساحة الـ... آه، أتعرف ذلك؟ بحق السماء، يصعب عليّ تصنيف نوعك. ولكنك تفهم إذن لماذا أستطيع أن أقول أن مركز الأشياء هو هنا رغم أننا نقف على حافة القارة. والحساس يفهم مثل هذه الغرائب.

وعلى أية حال، فإن قراء الصحف والمجامعين لا يستطيعون أن يذهبوا أبعد. إنهم يأتون من زوايا أوروبا الأربع ويقفون في مواجهة البحر الداخلي، على الساحل الكئيب. وهم يصغون إلى النفير المنذر بالضباب، ويحاولون عبثًا أن يميزوا أشباح القوارب في الضباب، ثم يديرون ظهورهم للقنوات ويعودون إلى بيوتهم في المطر ويبردون حتى العظام، ويحضرون ويسألون بكل اللغات طالبين شراب الجن في حانة مدينة المكسيك، وهنالك أنتظرهم.

حتى الغد، إذن، ياسيدي وابن وطني العزيز. كلا، ستميز طريقك بسهولة الآن: وسأتركك قرب هذا الجسر. إنني لا أعبر جسرًا في الليل، وتلك هي نتيجة عهد قطعته على نفسي. افترض، مثلًا، أن أحدًا سيقفز في الماء. أحد أمرين– إما أن تفعل مثله لتخرجه وفي الطقس البارد، تجازف مجازفة كبيرة، أو أن تتخلى عنه وتتركه هناك، ومثل هذه الحالات تترك المرء يتألم ألمًا غريبًا في بعض الأحيان، طاب مساؤك. ماذا؟ تلك السيدات خلف تلك النوافذ؟ حلم، يا سيدي، حلم رخيص، سفرة إلى الجزر

الهندية! إنهن يعطرن أنفسهن بالفلفل. فأنت تدخل، ويسحبن الستائر، وتبدأ بالإبحار. وتهبط الآلهة على الأجساد العارية وتنطلق الجزر مع التيار أرواحًا ضائعة يتوجها شعر النخيل الذي تموجه وتعابثه الرياح. جرب.

ها هو القاضي التائب؟ آه، لقد خادعتك بذلك العمل. ولم أكن أضمر شرًا، صدقني، وأنا أستطيع أن أعبر عما أريد بوضوح وهذا نوعًا ما، يتعلق بواجباتي الرسمية أيضًا. ولكن علي أولًا أن أمهد بمجموعة معينة من الحقائق التي ستساعدك في فهم قصتي.

كنت قبل بضع سنوات محاميًا في باريس، بل كنت محاميًا مشهورًا. ولم أخبرك باسمي الحقيقي طبعًا. ولدي اختصاص في القضايا النبيلة. الأرامل والأيتام –كما يقول المثل– ولست أعرف لماذا، لأن هنالك أرامل سيئات وأرامل شريرات. ومع ذلك فقد كان يكفيني أن أضفي أقل ما يمكن من عطر الضحية على موكلي لأفوز بالقضية وأصول وأجول، وأية صولة! عاصفة حقيقية! كان قلبي في كمي. كنت ستعتقد بأن العدالة كانت تنام معي كل ليلة، وأنا واثق من أنك كنت ستعجب بصدق لهجتي وتوافق انفعالاتي، والإقناع، والحرارة والاستياء المكظوم في خطبي أمام المحكمة.

وكانت الطبيعة بجانبي، بالنسبة لشكل جسمي، ولهذا فقد كنت أتخذ الموقف النبيل دون أية صعوبة. وبالإضافة إلى ذلك، كان هنالك شعوران صادقان يتيحان لي أن أحلّق عاليًا، رضائي عن نفسي لأنني كنت أقف في الجانب المحق من القضاء، واحتقاري الفطري للقضاة بصورة عامة، ولم يكن ذلك الاحتقار بعد كل ذلك فطريًا تمامًا، فأنا أعرف الآن أنه قد كانت له أسبابه، ولكن نظري إلى الأمر من الخارج يجعله يلوح انفعالًا صادقًا، ولا يمكنني أن أنكر أنه في هذه اللحظة على الأقل يجب أن يكون لدينا قضاة، أليس كذلك؟

وعلى أية حال، فإنني لم أستطع أن أفهم كيف يكون في وسع أحد أن يتقدم لأداء تلك المهام، وقد تقبلت الأمر لأنني رأيته، ولكن ذلك لم يكن ليختلف عن قبولي لوجود الجراد. ولكن هنالك اختلافًا، وهو أن الغزو الذي تقوم به أسراب تلك الحشرات لم ينفعني بفلس واحد، في حين أنني كنت أكسب عيشي بالحديث مع قوم كنت أحتقرهم.

بيد أنني كنت أقف في الجانب المحق، وكان هذا كافيًا ليرضي ضميري، فالشعور بالقانون، والرضى بكوني محقًا، وغبطتي بالمكانة الشخصية، يا سيدي العزيز، دوافع قوية تجعلنا نستمر في الصعود أو التقدم، ومن الناحية الأخرى، فإنك إذا جردت البشر منها حولتهم إلى كلاب مزمجرة بزَبَد الغضب. كم من الجرائم ارتكبت، فقط لأن مرتكبيها لم يحتملوا كونهم مخطئين! كنت أعرف صاحب مصنع كانت لديه زوجة كاملة، وكانت موضع إعجاب الجميع، ومع ذلك خدعها، والحق أن ذلك الرجل كان يشتاط غضبًا لأنه كان مخطئًا، لأنه لم يكن يستطيع أن ينال، أو يمنع، شهادة الفضيلة، وكلما كثرت الفضائل في زوجته زاد استياؤه، وأخيرًا لم يعد في وسعه أن يحتمل العيش مع الخطأ، فماذا تظنه فعل؟ هل تخلى عن خداعه لها؟ كلا، أبدًا. لقد قتلها. وكان هذا هو مفتاح علاقتي به.

كان موقفي محسودًا أكثر من ذلك، فلم أكن بعيدًا عن المجازفة بالانضمام إلى معسكر الجريمة وحسب، (وعلى الأخص، لم يكن في وسعي أن أقتل زوجتي لأنني كنت أعزب) وإنما كنت أدافع عنهم أيضًا بشرط أن يكونوا قتلة طيبين، كما أن آخرين هم متوحشون طيبون، بل أن الطريقة التي كنت أمارس بها دفاعي كانت تهبني قناعة عظيمة. وكنت فوق الاتهام في حياتي العملية، فلم أقبل رشوة. ولا حاجة بي إلى قول ذلك، ولم أتنازل فأقبل إجراءات غير واضحة.

ثم إنني – وهذا ليس نادرًا – لم أتملق أي صحفي لأكسبه إلى جانبي، ولا أي

موظف مدني من أولئك الذين قد تنفعني صداقتهم. وقد كنت محظوظًا أيضًا بحيث قُدم لي وسام الشرف مرتين أو ثلاثًا، واستطعت أن أرفضه بكبرياء حصيفة كنت أجد فيها الجزاء الذي ارتضيته لنفسي. وأخيرًا، لم آخذ من الفقراء أية أتعاب، ولم أفاخر بذلك. لا تظن أبدًا، يا سيدي العزيز أنني أفاخر؛ فأنا لا أرى في ذلك موضعًا للفخر. إن الجشع الذي يحل في مجتمعنا محل الطموح كان يضحكني دائمًا. كنت أصبو إلى ما هو أسمى من ذلك، وسترى أن التعبير دقيق في قضيتي.

ولكنك تستطيع أن تتصور قناعتي. لقد استمتعت بالتعبير عن طبيعتي على أكمل وجه، ونحن جميعًا نعرف أن السعادة تكمن في ذلك رغم أننا، لكي يواسي بعضنا بعضًا، نتظاهر أحيانًا بتوجيه إصبع الإتهام إلى مثل هذه المتع باعتبارها أنانية. كنت أستمتع على الأقل بذلك الجانب من طبيعتي الذي كان ينفعل انفعالًا صحيحًا مناسبًا تجاه الأرملة واليتيم، بحيث أنه صار بالتالي يتحكم في حياتي كلها بالممارسة. كنت مثلًا أحب أن أساعد العميان على عبور الشارع. وكنت كلما رأيت عصًا تهتز مترددة على جانب الرصيف، أهرع إليها، وكنت أحيانًا أسبق يدًا أخرى غير يدي، تمتد بالعون، بثانية واحدة، وأختطف الأعمى ولا أدع عناية أخرى تشمله، وآخذه بلطف، ولكن بقوة، عبر الشارع، بين عوارض المرور، نحو حمى الجانب الآخر من الرصيف، حيث نفترق وفينا عاطفة مشتركة. وبالطريقة نفسها، كنت أستمتع بإسداء العون في الشارع، وإشعال السكائر للآخرين والمساهمة في دفع العربات اليدوية الثقيلة أو دفع السيارات العاطبة أو شراء صحيفة من فتاة جيش الخلاص، أو الزهور من البائعة العجوز، رغم أنني كنت أعرف أنها سرقتها من مقبرة مونبارناس.

وكنت أميل أيضًا – ويصعب على قول ذلك – إلى إعطاء الصدقات. لقد أقر صديق مسيحي جدًا من أصدقائي بأن شعور المرء الأول حين يرى شحاذًا يقترب من بيته هو شعور سار. حسنًا، لقد كان ذلك الشعور أسوأ من ذلك بالنسبة لي، فقد

كنت أغتبط، ولكن دعنا لا نستمر في بحث ذلك.

دعني أتحدث عن مجاملاتي، لقد كانت مشهورا لا يمكن أن يشك فيها أحد، والحق أن الأسلوب الاجتماعي الطيب كان يتيح لي غبطة كبيرة، فلو استطعت في بعض المناسبات في الصباح أن أقدم مقعدي في الباص أو النفق لشخص كان واضحًا عليه أنه يستحقه، أو ألتقط شيئًا أسقطته سيدة عجوز وأعيده إليها مع ابتسامة، كنت أعرف كيف أوجهها، أو أتنازل عن التاكسي لشخص آخر على عجل من أمره أكثر مني، فإن ذلك الصباح يكون فياضًا بالسعادة.

بل إنني كنت أغتبط، ويجب علي أن أقر بذلك، حين كانت النقليات تتوقف في بعض الأيام بسبب الإضراب، بشحن سيارتي من مواقف الباصات بزملائي المواطنين سيئي الحظ الذين لا يستطيعون أن يعودوا إلى بيوتهم. وكنت حين أتنازل عن مقعدي في المسرح لأتيح لاثنين أن يجلسا معًا، أو أحمل حقائب فتاة إلى القطار – كانت هذه كلها من الأفعال التي كنت أقوم بها أكثر من غيري لأنني كنت أهتم اهتمامًا أكبر من اهتمامهم بذلك، فأجد الفرص وأستطيع أكثر من الآخرين أن أستمتع بذلك.

وبالنتيجة، كانوا يعتبرونني كريمًا، وكذلك كنت. لقد كنت أمنح الكثير، في العلن وفي السر. وبدلًا من أن أتألم حين كنت أمنح شيئًا أو مالًا، كنت أجد في ذلك متعة دائمة، متعة تشوبها كآبة حين أفكر في لا جدوى تلك الهدايا، وفي الجحود الذي قد يتبع ذلك. وكنت أجد في الإعطاء متعة تجعلني أكره أن أجد نفسي مرة مضطرًا إلى ذلك الإعطاء. فقد كان الاستحقاق في الأمور المالية يضايقني مضايقة قاتلة، وكنت أنصاع إلى ذلك بخشونة، كنت أريد أن أكون سيد عطائي.

هذه أمور صغيرة، ولكنها ستساعدك على فهم الغبطة المستمرة التي كنت أمارسها في حياتي، وخاصة في عملي؛ فأن تستوقفَك في ممر إحدى المحاكم زوجة متهم تترافع عنه بدافع العدالة أو الشفقة فقط – أعني بدون عوض – وأن تسمع همساتها

وهي تقول إنه ليس هنالك شيء، كلا، لا شيء يمكن أن يعوضك عما فعلت من أجلها، وأن تجيبها قائلًا أن ذلك كان طبيعيًا جدًا، وأن أي شخص كان سيفعل أكثر من ذلك، بل أن تقدم عونًا ماليًا لمواجهة الأيام السيئة المقبلة، ثم، لكي توقف تدفق العواطف وتجعلها تلوح معقولة محتفظه بقوتها – تقبل يد المرأة البائسة وتمضي في طريقك – صدقني يا سيدي العزيز، أن هذا يعني إنجازًا أكثر من مجرد المطامح العادية التي يرنو إليها الأشخاص العاديون، ويعني السمو إلى القمة العالية حيث الفضيلة هي الجزاء الوحيد.

دعنا نتأمل في تلك الأعالي، وأنت الآن تفهم ما كنت أعنيه بالحديث عن السمو إلى الأعالي. لقد كنت أتحدث، هكذا، عن تلك القمم السامية، الأماكن الوحيدة التي يمكنني أن أعيش فيها. أجل، لم أكن أشعر بالراحة إلا بالأماكن السامقة، وحتى في تفاصيل الحياة اليومية كنت في حاجة إلى الشعور بالسمو. وكنت أفضل الباص على النفق والعربات المفتوحة على سيارات التاكسي والشرفات على الأماكن المغلقة، وكنت شديد الحماسة لطائرات الرياضة التي يبرز منها الرأس في الفضاء، وأما في السفن فكنت أبدًا أتمشى على الرصيف العالي. وأما في الجبال فكنت أهرب من الوديان العميقة إلى الممرات الجبلية والهضاب، وكنت، على الأقل، رجل القمم الجرداء. ولو كان القدر قد اضطرني إلى الاختيار بين العمل في زاوية النساج، أو العمل فوق السطوح، فلا تقلق، لأنني كنت سأختار السطوح، وكنت سأعتاد على ذلك الإغماء اللذيذ!

كانت أوعية الفحم ومخازن السفن والأنفاق والكهوف والحفر كريهة بالنسبة لي، بل أنني صرت أكره علماء الكهوف الذين يجرؤون على ملء الصفحات الأولى في صحفنا والذين كانت كتاباتهم تثير غثياني. إن بذل الجهد للوصول إلى المتعة على عمق ثمانمائة قدم، والمجازفة بأن يعتصر رأس المرء في قمع أرضي ضيق أو السيفون كما

يسميه أولئك الحمقى! – لاح لي متعة أولئك الذين يتميزون بالانحراف أو الذين أصابتهم صدمة نفسية، بل أن في ذلك شيئًا من الإجرام أيضًا.

ومن الناحية الأخرى، فإن شرفة طبيعية على ارتفاع ألف وخمسمائة قدم فوق البحر، غارقة في نور الشمس، كانت المكان الذي يمكنني أن أتنفس فيه بحرية، خاصة إذا كنت وحيدًا. فوق مستوى النمل البشري. وكنت أستطيع أن أفهم لماذا كانت الطقوس والمواعظ الحاسمة وأعاجيب النار ومعجزاتها تقام في الأعالي التي يمكن بلوغها. وأعتقد أنه لم يسبق لأحد أن غرق في تأملاته في قبو أو زنزانة سجنة (ما لم تكن الزنزانة في برج يطل على منظر واسع) لأن المرء في مثل هذه الأماكن يتخذ شكلها. وكان في وسعي أن أفهم ذلك الذي يظفر بالمكانة المقدسة ويتخلى عنها لأن محرابه، بدلًا من أن يطل على منظر طبيعي واسع كما كان يتوقع، إنما كان يواجه الجدار.

كن واثقًا من أنه بقدر ما كان الأمر يتعلق بي، لم أدع نفسي تستقر في مكان واحد؛ ففي كل ساعة من النهار – سواء في داخل نفسي أو بين الآخرين –كنت أصبو إلى الأعالي وأوقد النيران الرائعة فتستقبلني تحية هنيئة. وهكذا كنت على الأقل أستمتع بالحياة وكذلك بروعتي.

وكان عملي يرضي في نفسي نزوعها هذا نحو الأعالي، وقد جردني من كل شعور بالمرارة نحو جاري الذي كنت أنعم عليه دائمًا، دون أن أكون يومًا واحدًا مدينًا له بشيء. لقد رفعني ذلك فوق القاضي الذي كنت أقاضيه بدوري، وفوق المتهم الذي كنت أضطره إلى عرفان الجميل.

تأمل في ذلك، يا سيدي العزيز، لقد كنت أعيش حرًا من أية مسؤولية، ولم يكن هنالك أي حكم متعلق بي، ولم أكن في قاعة المحكمة وإنما في مكان ما في الأعالي، كتلك الآلهة التي تحضر من وقت لآخر، لتحول شكل الأمور وتعطيها معناها. ثم أن

العيش في الأعالي لا يزال الطريقة الوحيدة التي يراك بها ويحييك أكبر عدد.

وإلى جانب ذلك، فإن بعض قتلتي الطيبين كانوا قد قتلوا مطيعين الشعور نفسه، ولا شك في أن قراءة الصحف بعد ذلك في الحالة المؤسفة التي يكونون فيها حينئذ، تتيح لهم تعويضًا غير لطيف. وكالكثيرين من البشر، لم يعد في وسعهم أن يحتملوا كونهم نكرات، وقد ساهم هذا الضيق في دفعهم إلى تطرف سيء الحظ. وللوصول إلى السمعة، يكفي المرء أن يقتل بوابه، ومن الأمور المؤسفة أنها سمعة لا تعيش طويلًا، فهنالك عدد كبير من البوابين الذين يستحقون القتل وينالون طعنة السكين فعلًا. والجريمة تحتكر العناوين الأولى في الصحف دائمًا. ولكن المجرم يظهر فيها ظهورًا عابرًا فقط، لكي يحل محله مجرم آخر سريعًا.

ومثل هذه الانتصارات السريعة — باختصار — تكلف غاليًا، والدفاع عن طامحينا البؤساء الباحثين عن السمعة، هو من الناحية الأخرى وصول إلى الشهرة في الوقت نفسه، والأماكن نفسها، وإنما بطرق أكثر اقتصادًا، ولهذا شجعني ذلك على بذل جهود أشد ليكون ما يدفعونه أقل ما يمكن. وكانوا حين يدفعون لي إنما يفعلون ذلك بدلًا عني، فالاستياء والموهبة والانفعال، تلك الأمور التي كنت أبذلها من أجلهم، كانت بدورها تزيل أي دين يمكن أن أشعر به نحوهم. كان القضاة يحكمون والمتهمون يكفرون عن جرائمهم، بينما كنت أنا حرًا من أية مسؤولية، بعيدًا عن كل حكم أو عقاب، مرحًا غارقًا في نور كنور جنة عدن.

ألم تكن تلك جنة عدن يا سيدي العزيز، ألا يقف شيء بيني وبين الحياة؟ كانت حياتي كذلك، ولم يكن علي أن أتعلم كيف أعيش. وبهذا الخصوص كنت أعرف كل شيء مقدمًا حين ولدت. إن مشكلة بعض الناس هي أن يحموا أنفسهم من البشر، أو على الأقل أن يصلوا معهم إلى اتفاق. وفي حالتي، كان الفهم موجودًا منذ البداية. كنت أتصرف بغير كلفة حين يكون ذلك مناسبًا، وأصمت حين يكون الصمت

ضروريًا. وكنت قادرًا على اتخاذ مواقف مثل هذه بسهولة وحرية وبالسرعة التي ينطلق بها عنان كبريائي، مع احتفاظي بالتوافق دائمًا. ولذلك كانت شهرتي عظيمة وكان نجاحي في المجتمع كبيرًا، ومظهري مقبولًا، وكنت ألوح راقصًا لا يتعب، ومثقفًا لا يضايق، وكان في وسعي أن أحب في وقت واحد- وليس هذا سهلًا- النساء والعدالة.

ومارست الرياضة والفنون الجميلة- باختصار، لن أستمر خشية أن تتهمني بالغرور الشخصي. ولكن، تصور فقط، أرجوك، رجلًا في ذروة قوته، في أتم الصحة، موهوبًا جدًا، بارعًا في فعاليات الذهن، ليس غنيًا ولا بائسًا، ينام جيدًا، ويرضى عن نفسه دون أن يكشف عن ذلك بغير طبيعته الاجتماعية المبهجة. يمكنك أن ترى مباشرة كيف أنني أستطيع أن أتحدث عن الحياة الناجحة دون أن أغادر تواضعي.

أجل، لم يكن هنالك إلا القلائل ممن كانوا أكثر طبيعية مني. لقد كنت على وفاق مع الحياة في كل ناحية، وكنت منسجمًا معها من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، دون أن أرفض أيًا من نقائضها الساخرة أو عظمتها أو عبوديتها، وعلى الأخص كان الجسد والمادة وكل شيء مادي مما قد يبعث البعض على اليأس ويغل من عزائمهم سواء كان ذلك في الحب أو العزلة، يتيح لي الغبطة دائمًا دون أن يستعبدني. كان وجودي يتألف من الجسد بصورة خاصة، وهذا يفسر توافقي الداخلي، وتلك السهولة في تصرفاتي، التي كان الناس يشعرون بها. بل كانوا يقولون لي أحيانًا أن ذلك كان يساعدهم في حياتهم. وكانوا يرغبون في صحبتي. وغالبًا ما كان الناس يتصورون أنهم كانوا قد قابلوني في الماضي. لقد قدمت الحياة ومخلوقاتها وهباتها نفسها لي، وقد تقبلت تلك الهبات بفخر وطيبة. والحق أنني كنت أعتبر نفسي أسمى من الإنسان، فقط لأنني كنت رجلًا بكل ذلك الكمال وتلك البساطة.

وقد ولدت في بيت محترم، ولكنه متواضع، كان والدي ضابطًا، ومع ذلك فقد

كنت في صباح بعض الأيام، ودعني أعترف بذلك بتواضع، أشعر وكأنني كنت ابن ملك، أو غابة ملتهبة. ولكن هذا لا يعني يقينًا بأنني كنت أكثر ذكاءً من الآخرين. ثم أن مثل هذا اليقين لا ينتج شيئًا، لأن الكثيرين من الأغبياء يتمتعون بمثل هذا اليقين.

كلا، فنتيجة لكوني غارقًا في البركات، كنت أشعر بأنني كنت بارزًا، رغم ترددي في الإقرار بذلك، فقد كنت بارزًا شخصيًا بين الجميع، بسبب ذلك النجاح الذي لم ينقطع أبدًا. وكان هذا نتيجة لتواضعي، فقد كنت أرفض أن أعلل نجاحي بخصالي، ولم يكن في وسعي أن أصدق أن ترافق مثل هذه الفضائل المختلفة والمتطرفة في شخص واحد هو نتيجة الصدفة وحدها، ولهذا السبب كنت أشعر في حياتي السعيدة بأن سعادتي كانت صادرة من سلطة سامية. وحين أضيف أنه لم يكن لي أي دين، فيمكنك أن ترى بصورة أفضل كيف أن ذلك الاعتقاد كان شاذًا، وسواء كان عاديًا أم لا، فإنه أفادني بعض الوقت.

إذ أنه رفعني فوق مستوى الروتين اليومي، وقد حلّقت حقًا عدة سنوات ما أزال أحن إليها إذا أردت الحق في صميم قلبي. لقد حلقت حتى ذلك المساء حين... كلا، هذا أمر آخر، ويجب أن يظل منسيًا. على كل حال، ربما أبالغ. كن واثقًا من أنني كنت أتصرف بسهولة في كل شيء، ولكني في الوقت نفسه لم أكن لأقنع بشيء.

كانت كل غبطة تجعلني أشتهي أخرى. وقد تنقلت من بهجة إلى بهجة، وكنت في بعض المناسبات أرقص ليالي كاملة، ويزيد جنوني أكثر فأكثر بالناس والحياة. وفي بعض الأحيان، حين يتأخر الوقت في تلك الليالي، وحين يملؤني الرقص، والنشوة الخفيفة، وحماستي الوحشية، وانطلاق الجميع بعنف، بنشوة ذاهلة يزداد تعبي، كان يلوح لي في اللحظة التي أكون فيها منهكًا، وبسرعة البرق– أنني كنت أفهم سر المخلوقات والعالم. ولكن التعب كان يختفي في اليوم التالي، ويختفي معه السر، وأعود إلى الاندفاع من جديد. وظللت أندفع كذلك، مغمورًا بالعطاء، لا أشبع، دون أن

أعرف أين سأقف، حتى ذلك اليوم– بل ذلك المساء، الذي توقفت فيه الموسيقى وانطفأت الأضواء. الحفلة المرحة كنت فيها شديد السعادة.. ولكن أسمح لي بأن أزور صديقي القرد. هز رأسك لتشكره، وفوق ذلك، اشرب معي، لأنني بحاجة إلى فهمك لي.

أرى أن ذلك الاعتراف يدهشك. ألم تشعر فجأة بالحاجة إلى التفهم والعون والصداقة في يوم من الأيام؟ أجل، طبعًا. ولقد تعلمت أنا كيف أقنع بالتفهم أنني أعثر عليه بصورة أشد سهولة، ثم إنه ملزم، وعبارة: "أرجوك أن تؤمن بتفهمي العطوف"، في الحديث الوثيق تسبق دائمًا عبارة: "دعنا الآن ننتقل إلى أمور أخرى" إنها عاطفة رئيس مجلس، وهي تأتي بصورة رخيصة، بعد الأزمات. أما الصداقة فهي أقل بساطة، والحصول عليها يتطلب وقتًا، وهو صعب، أما حين يحصل عليها المرء فيجب أن يسير معها. ولا تظن لحظة واحدة أن أصدقاءك سيتصلون بك تلفونيًا كل مساء، كما يجب عليهم أن يفعلوا، لكي يعرفوا هل أن هذا المساء هو المساء الذي تقرر فيه أن تنتحر، أو هل أنت في حاجة إلى الرفقة، أو أنك لست في مزاج يتيح لك الخروج.

كلا، لا تقلق، فإنهم سيتصلون بك في المساء الذي لا تكون فيه وحدك، حين تكون الحياة جميلة. أما بالنسبة للانتحار، فإنهم سيدفعونك إليه على الأكثر، بسبب ما تدين به لنفسك، كما يعتقدون. لتحمنا السماء، يا سيدي العزيز، من أن يضعنا أصدقاؤنا على قاعدة تمثال! أما أولئك الذين يكون واجبهم أن يحبونا – أعني الأقارب والصلات (أي تعبير!) – فهم أمر آخر. إنهم يجدون الكلمة المناسبة، حقًا، وهي تصنع عين الثور. وهم يتصلون تلفونيًا وكأنهم يطلقون رصاصة. وهم يعرفون كيف يصيبون الهدف. آه، أمثال بازين، المحاربون!

ماذا؟ أي مساء؟ سأصل إلى ذلك. كن صبورًا معي. إنني أتحدث في صميم

الموضوع، بطريقة ما، حين أتحدث عن الأصدقاء والأقرباء. انظر، لقد سمعت برجل كان صديقه قد سجن، فنام على الأرض في كل ليلة لئلا يستمتع بالراحة التي حرم منها صديقه. فمن هو الذي سينام على الأرض من أجلنا، يا سيدي العزيز؟ وهل أستطيع أنا أن أفعل ذلك؟ انظر، أود أن يكون في وسعي، وسيكون.

أجل، سيكون ذلك في وسعنا جميعًا في أحد الأيام، وذلك سيكون الخلاص. ولكن هذا ليس سهلًا، لأن الصداقة تنسى، أو إنها على الأقل لا تجدي. إنها لا تستطيع أن تحقق ما تريد. ولكن، ربما لم تكن تريد ذلك إرادة كافية؟ ربما نحن لا نحب الحياة حبًا كافيًا؟ هل لاحظت أن الموت وحده هو الذي يوقظ مشاعرنا؟ وكيف أننا نحب الأصدقاء الذين غادروا لتوهم؟ وكيف نعجب بأولئك الأساتذة الذين لم يعودوا يتحدثون، بعد أن ملأ التراب أفواههم! حينئذ ينبثق التعبير عن الإعجاب طبيعيًا، ذلك الإعجاب الذي ربما كانوا يتوقعونه منا طيلة حياتهم. ولكن، أتعرف لماذا نكون دائمًا أكثر عدلًا وأشد كرمًا نحو الموتى؟ السبب بسيط. فليس هنالك التزام نحوهم. إنهم يتركوننا أحرارًا، فيمكننا أن نستمتع بالوقت، ونضع تلك الطقوس بصورة مناسبة بحيث تكون بين حفلة كوكتيل وعشيقة صغيرة لطيفة، أي في وقت فراغنا، باختصار.

وإذا اضطرونا إلى شيء فإنه يكون تذكرًا وليس لدينا إلا ذاكرة قصيرة. كلا، إننا نحب من بين أصدقائنا أولئك الذين ماتوا حديثًا، الذين ماتوا متألمين، عواطفنا نفسها، أنفسنا في الواقع.

كان لي مثلًا صديق كنت أتجنبه دائمًا. لقد كان يضايقني، فضلًا عن أنه كان يعظ بالأخلاق. وحين اضطجع على فراش الموت، كنت هناك– لا تقلق، فلم يغتني يومًا. وقد مات قانعًا راضيًا بي، ممسكًا بيدي. وكانت هنالك امرأة تطارده عبثًا، وقد دفعها إخلاصها إلى أن تموت في شبابها. وأي مجال انفتح في قلبي حالًا! خاصة، بالإضافة لذلك، أن الأمر كان انتحارًا! يا إلهي، أي إضطراب ممتع! يقرع جرس

تلفونك، ويفيض قلبك، والعبارات القصيرة عمدًا، المحملة مع ذلك بالمضامين الكثيرة، وعذاب المرء المكبوت، وحتى، أجل، حتى بعض الاتهام واللوم الذاتي.

هكذا هو الإنسان يا سيدي العزيز. له وجهان، فهو لا يستطيع أن يحب بدون أن يحب نفسه. لاحظ جيرانك فيما لو حدث موت في العمارة. كانوا نائمين في روتينهم الصغير. ثم فجأة، مثلًا، يموت البواب. ويستيقظون في الحال، ويهيجون ويحصلون على التفاصيل ويحزنون. شخص ميت حديثًا. ويبدأ العرض أخيرًا. إنهم يحتاجون الى المأساة، ألا تعرف؟ إنها تمثل نزوعهم الذاتي الصغير، ومشتهاهم.

وأكثر من ذلك، هل هي مصادفة أن أتحدث عن بواب؟ كان لدي واحد حقود، لئيم، بل إنه كان وحشًا من التفاهة واللؤم، وكان قادرًا على بث اليأس حتى في نفس متدين فرانسسكي، وكنت قد تخليت حتى عن الحديث معه، ولكن مجرد وجوده كان يمثل تنازلًا مني عن بعض سعادتي. ومات وذهبت في جنازته. أتستطيع أن تقول لي لماذا؟ على كل حال كان اليومان اللذان سبقا يوم الجنازة حافلين بالمتعة.

كانت زوجة البواب مريضة، مضطجعة في غرفتها الصغيرة، وكان التابوت موضوعًا بقربها على عوارض خشبية. وكان على كل شخص أن يستلم بريده بنفسه. فيفتح كل واحد منهم الباب ويقول: "صباح الخير يا سيدتي"، ثم يصغي لمديحها للراحل العزيز بينما كانت تشير إليه، ويأخذ بريده. وليس هنالك ما يلذ للمرء في ذلك، ومع هذا فإن سكان العمارة جميعهم كانوا يمرون في غرفتها التي كانت تتنفس برائحة حامض الكاربونيك. كما أن أصحاب العمارة لم يرسلوا خدمهم أيضًا، وإنما حضروا بأنفسهم ليستغلوا المنظر الذي لم يكن متوقعًا. وكذلك فعل الخدم أيضًا، ولكن بالحيلة. وفي يوم الجنازة كان التابوت أكبر من الباب، وقالت الزوجة وهي في فراشها: "آه يا عزيزي"، وكان في صوتها شيء من الدهشة التي كان يمتزج فيها الجذل بالأسى حين أضافت: "كم كان كبيرًا!" وأجابها المشرف على الجنازة: "لا تقلقي يا

سيدتي، فسنخرجه من الباب بصورة جانبية عمودية" وأُخرج معتدلًا ثم أمالوه ثانية..

وكنت الوحيد (مع بواب سابق في أحد الملاهي، كان،كما خمنت، يشرب البيرنو كل مساء مع الراحل) الذي ذهب حتى المقبرة ووضع الزهور على التابوت الذي كان ترفه مدهشًا. ثم قمت بزيارة لزوجة البواب لأحصل على شكرها الذي عبرت عنه كما تعبر عنه الممثلة التراجيدية العظيمة. أخبرني، ماذا كان سبب ذلك كله؟ لا سبب ما عدا كونه مشهيًا.

وكذلك دفنت زميلًا قديمًا من أعضاء نقابة المحامين، وكان كاتبًا لم يكترث له أحد، ولكنني كنت أصافح يده دائمًا. وكنت أصافح أيدي الجميع أينما عملت، بل إنني كنت أتأكد جيدًا لئلا أنسى أحدًا. وبدون كبير مجهود، أكسبتني تلك البساطة المتوددة حب الجميع، الأمر الذي كان ضروريًا جدًا لسعادتي. ولم يخرج رئيس النقابة في جنازة كاتبنا، ولكنني فعلت، وفي مساء سفره، كما كنت قد أشرت بوضوح، إذ حدث أنني كنت أعرف أن حضوري سيكون موضع الملاحظة وكذلك التعليقات التي هي بجانبي، وهكذا فأنت ترى أنه لم يمنعني شيء من الحضور، حتى ولا الثلج الذي كان يتساقط في ذلك اليوم.

ماذا؟ كلا، لا تخش شيئًا، لقد اعتدت على ذلك، ثم إنني لم أتركه أبدًا. ولكن دعني أخبرك أولًا بأن زوجة البواب التي دفعت الكثير من أجل الصليب وخشب البلوط الثقيل والمقابض الفضية لكي تحصل من عاطفتها على أكثر ما يمكنها أن تحصل عليه، علقت بعد شهر من ذلك بريفي، مفرط في ثيابه، فخور بصوته الغنائي. وكان يضربها، وكانت الصرخات المرعبة تسمع بوضوح، ثم يفتح الشباك بعد ذلك مباشرة وينطلق مغنيًا أغنيته المحببة إلى نفسه: "أيتها النساء، ما أجملكن!" وكان الجيران يقولون: "نفس الشيء!" نفس الشيء ماذا؟ إنني أسألك. حسنًا، كانت المظاهر ضد المغني وضد زوجة البواب أيضًا، ولكن ليس هنالك ما يثبت أنهما لم يكونا متحابين،

ولا شيء يثبت أنها لم تكن تحب زوجها. وأكثر من ذلك، فحين هرب الريفي، بعد أن أصاب الإنهاك صوته وذراعه، استمرت تلك الزوجة المخلصة في مديحها للراحل. ثم إنني أعرف آخرين كانت المظاهر إلى جانبهم، بينما لم يكونوا أشد إخلاصًا أو صدقًا.

أعرف رجلًا تخلى عن كل شيء، تخلى عن عشرين سنة من عمره من أجل امرأة مشتتة الذهن، مضحيًا بكل شيء في سبيلها، أصدقاءه، وعمله والاحترام الذي كانت حياته تتميز به، وأدرك في إحدى الأمسيات إنه لم يكن يحبها أبدًا. كان ضجرًا، هذا هو كل ما في الأمر، ضجرًا كأكثر الناس. وهكذا صنع لنفسه حياة مليئة بالتعقيدات والمأساة. لا بد أن يحدث شيء– وهذا يفسر معظم الالتزامات البشرية. لا بد أن يحدث شيء، حتى العبودية التي لا حب فيها، حتى الحرب، أو الموت. اهرع إذن إلى الجنائز!

ولكن لم يكن لدي ذلك العذر على الأقل. لم أكن ضجرًا لأنني كنت أمتطي عرف الموجة، وفي المساء الذي ذكرته يمكنني أن أقول إنني كنت أقل ضجرًا من قبل. ومع ذلك.. أنت ترى يا سيدي العزيز إنه كان مساءً جميلًا من أمسيات الخريف، وكان الدفء ما يزال يعم المدينة، والرطوبة بدأت تنتشر فوق نهر السين. وقد هبط الليل، والسماء ما تزال براقة في الغرب، وكانت تظلم شيئًا فشيئًا، ومصابيح الشارع تتأجج في خفوت.

وكنت أسير على أرصفة الضفة اليسرى نحو جسر الفنون. وكان النهر يتألق بين صفوف الكتب المستعملة. ولم يكن هنالك غير القلائل على الأرصفة، وباريس منهمكة في تناول العشاء. وكنت أخطو على الأوراق المغبرة الصفراء التي كانت ما تزال تتذكر الصيف. وكانت السماء تمتلىء تدريجيًا بالنجوم التي كان في وسعي أن أراها بعد مغادرة أحد مصابيح الشارع والاتجاه نحو مصباح آخر.

واستمتعت بعودة الصمت، وهدوء المساء، وخلو باريس، وكنت سعيدًا، وكان

النهار طيبًا: رجل أعمى، العبارة المقتضبة التي كنت أترقبها، والمصافحة الودية من زبوني، وبعض الهبات التي منحتها، وبعد الظهر، بعض الحديث المرتجل بصحبة عدد من الأصدقاء عن قسوة طبقتنا الحاكمة ونفاق قادتنا.

وصعدت إلى جسر الفنون، الذي كان مهجورًا في تلك الساعة، لأنظر إلى النهر الذي لم يكن في وسعي أن أراه بسهولة بعد أن هبط الليل. وبينما كنت أواجه تمثال فيرغالانت، كنت أسيطر على منظر الجزيرة. وأحسست بشعور متزايد من القوة ينبثق في داخلي، و– لست أعرف كيف أعبر عن ذلك– الكمال الذي أبهج قلبي. واعتدلت، وبينما كنت أحاول أن أشعل سيكارة، سيكارة القناعة، انبثقت في تلك اللحظة ضحكة خلفي. ودهشت، واستدرت خلفي فجأة، ولم يكن هنالك أحد. واتجهت نحو السياج، ولم تكن هنالك مقطورة نهرية ولا قارب.

وعدت نحو الجزيرة، ومرة أخرى سمعت الضحك خلفي، أبعد قليلًا، وكأنه كان ينحدر مع التيار، ووقفت هنالك بلا حراك، وكان صوت الضحك يخفت، ولكنني كنت أستطيع سماعه خلفي بوضوح، آتيًا من اللا مكان، ما عدا المساء. وفي الوقت نفسه كنت أحس بضربات قلبي السريعة. أرجوك ألا تسيء فهمي، فلم يكن هنالك أي غموض بشأن تلك الضحكة، وإنما كانت طيبة، قلبية، بل ودية تقريبًا، وقد أعادت تثبيت النسب المعقولة.

بعد ذلك مباشرة لم أسمع أي شيء، وعدت إلى الأرصفة، ودخلت شارع دفين، واشتريت بعض السكائر التي لم أكن في حاجة إليها أبدًا. كنت في شبه غيبوبة، أتنفس بصعوبة. واتصلت بصديق في ذلك المساء، ولكنه لم يكن في بيته. وكنت مترددًا في الخروج، حين سمعت الضحك فجأة تحت نوافذي، وفتحتها، وكان هنالك في الواقع بعض الشبان على الممر الجانبي يقولون لبعضهم بصوت عالٍ: "طابت ليلتكم." وهززت كتفي بينما كنت أغلق النوافذ، وكان عليّ بعد كل ذلك أن أدرس خلاصة

إحدى القضايا. ومضيت إلى غرفة الحمام لأتناول قدحًا من الماء، وكان ظلي يبتسم في المرآة. ولكن لاح لي أن ابتسامتي كانت مزدوجة..

ماذا؟ المعذرة. كنت أفكر في شيء آخر من المحتمل أن أراك مرة أخرى غدًا. غدًا؟ أجل، هذا صحيح. كلا، كلا، لا أستطيع أن أبقى. ثم أن ذلك الرجل الأسمر الذي يشبه الدب والذي تراه هناك قد استدعاني طلبًا للمشورة. وهو حقًا رجل محترم، وإنما يضطهده رجال الشرطة اضطهادًا لا سبب له غير شذوذهم المحض. أتظن إنه يلوح قاتلًا؟ اطمئن، فإن أفعاله تنطبق على ملامحه، فهو يقتحم الدور أيضًا، وسيدهشك أن تعرف أن إنسان الكهف هذا متخصص في تجارة الأعمال الفنية، وفي هولندا تجد أن الجميع متخصصون في اللوحات أو الزهور، وهذا الرجل بملامحه المتواضعة هو الذي قام بأشهر سرقة في عالم سرقات اللوحات الفنية.

أية لوحة؟ قد أخبرك. لا تندهش من معرفتي لذلك. وبالرغم من إنني قاض تائب، إلا أنني أقوم بعمل ثانوي هنا، فأنا المستشار القانوني لهؤلاء الناس الأخيار، وقد درست قوانين البلد وخلقت لنفسي بعض الزبائن في هذه المنطقة حيث لا يتطلب الأمر أية شهادة. ولم يكن الأمر سهلًا، إلا أنني أستطيع أن أكسب الثقة، أليس كذلك؟ لدي ضحكة طيبة قلبية، ويد مصافحة متحمسة، ومثل هذه الأمور تسهل لي الكثير.

ثم إنني استطعت أن أتوصل إلى تسوية بعض القضايا الصعبة بدافع من اهتمامي الشخصي مبدئيًا، ثم بدافع من العقيدة. لأنه إذا حكم على القوادين واللصوص بدون استثناء، فإن كل الناس المحترمين سيعتقدون أنهم أبرياء دائمًا يا سيدي العزيز. وفي رأيي– حسنًا، حسنًا، أنا آت!– فإن هذا هو ما علينا أن نتحاشاه بعد كل ذلك. وإلا فإن كل شيء يكون مجرد دعابة.

السعادة الغامضة

إنني لشاكر لك حقًا يا مواطني العزيز فضولك هذا. وعلى كل حال فليس هنالك شيء غريب في قصتي، وما دمت مهتمًا بالأمر فسأخبرك بأنني لم أفكر في تلك الضحكة إلا قليلًا، بضعة أيام، ثم نسيت كل شيء عنها. وكنت أسمعها بين بعض الفترات الطويلة في أعماقي. ولكنني كنت طيلة الوقت أفكر في أمور أخرى دون أن أبذل أي مجهود.

ومع ذلك فيجب علي أن أقر بأنني كففت عن التمشية على أرصفة باريس، وحين كنت أمر بها في سيارة تاكسي أو في الباص فإن نوعًا من الصمت كان يخيم علي. لعلي كنت أنتظر، ولكنني كنت أعبر السين دون أن يحدث شيء، وأتنفس ثانية. وكنت أواجه بعض المشاكل الصحية في ذلك الحين، ولم يكن هنالك شيء واضح، ولكن، ربما كان الأمر كآبة، أو صعوبة في استعادة مزاجي المرح.

وقد زرت الأطباء الذين كانوا يعطونني المنبهات، وكنت أتنبه وأكتئب بصورة متعاقبة. وصارت الحياة أقل سهولة بالنسبة لي، حين يكتئب الجسم فإن القلب يذبل. ولاح لي أنني كنت أنسى نصف نسيان ما لم أكن قد تعلمته أبدًا، وما كنت أعرفه كل المعرفة– كيف أعيش. أجل، أعتقد أن الأمر كله بدأ في ذلك الحين.

ولكن، يلوح لي أنني غير قادر على شيء في هذا المساء، بل إنني لأجد صعوبة في التعبير. ويلوح لي إنني لست أتحدث جيدًا، كما أن كلماتي صارت أقل ثقة، ربما يكون ذلك بسبب الطقس، فمن الصعب علي أن أتنفس، والهواء ثقيل بحيث إنه يكلكل على صدري. أتعترض يا مواطني العزيز على الخروج والتمشية في المدينة قليلًا؟ شكرًا.

كم هي جميلة هذه القنوات في هذا المساء! إنني أميل إلى شم رائحة المياه الآسنة، والأوراق الذابلة المشبعة بمياه القنوات، وعطر الجنائز الذي ينبعث من المقطورات النهرية المحملة بالزهور. كلا، كلا، أؤكد لك إنه ليس هنالك أي شعور مريض في مثل هذا الميل، بالعكس، إنه متعمد في حالتي. والحقيقة هي إنني أضطر نفسي إلى الإعجاب بهذه القنوات. والشيء الذي أحبه أكثر من أي شيء آخر في العالم هو صقلية كما ترى، وخاصة من قمة إيتنا. وفي نور الشمس، بشرط أن أسيطر على منظر الجزيرة والبحر. جاوة أيضًا، ولكن في أيام الرياح التجارية. أجل، لقد ذهبت إلى هناك في شبابي. إنني أحب كل الجزر بصورة عامة، فمن السهل أن يسيطر الإنسان على منظرها كلها.

بيت جميل، أليس كذلك؟ الرأسان اللذان تراهما فوقه هما رأسا عبدين زنجيين ويمثلان لوحة دكان. وكان البيت من أملاك أحد تجار الزنوج. آه، لم يكونوا ليثيروا صخبًا كبيرًا في تلك الأيام: كانوا واثقين، وكانوا يعلنون: "ترون إنني رجل له أهميته، وأنا أتاجر بالعبيد، باللحم الأسود" أتستطيع أن تتصور أحدًا اليوم يعلن على الناس أن عمله هو كذلك؟ أية فضيحة! إنني أستطيع أن أسمع زميلي الباريسي فعلًا. إنهم عنيدون في هذا الشأن، وهم لا يترددون في إعلان بيانين أو ثلاثة، وربما أكثر! وحين أفكر في ذلك فقد أضيف توقيعي إلى تواقيعهم.

العبودية؟ –كلا بالطبع– نحن ضدها! أن نكون مضطرين إلى تثبيت ذلك في بيوتنا ومصانعنا– حسنًا، هذا طبيعي، ولكن الفخر بذلك، هذا هو الحد!

إنني أدرك أن المرء لا يستطيع الاستمرار في العيش مع الآخرين دون أن يتحكم فيهم أو بدون أن يخدموه، فكل إنسان يحتاج إلى العبيد كما يحتاج إلى الهواء النقي، والأمر هو تنفس– أتوافقني؟ وحتى أشد الناس بؤسًا يستطيعون أن يتنفسوا. وأوطأ رجل في السلم الاجتماعي يملك زوجة أو ولدًا، وإذا لم يكن متزوجًا فإنه يملك كلبًا.

والأمر المهم بعد كل ذلك هو أن يكون المرء قادرًا على الغضب على شخص ما، لا يملك حق الرد. "والمرء لا يستطيع أن يرد على كلام والده"

– أتعرف هذا التعبير؟ إنه غريب جدًا من زاوية واحدة. ترى على من سيرد المرء في هذا العالم إذا لم يفعل ذلك مع من يحب؟ ومن زاوية أخرى فإنه مقنع. فلا بد أن تكون الكلمة الأخيرة لشخص ما، وإلا فيمكن الرد على أي سبب بسبب آخر، ولكن بدون أن تكون نهاية لذلك. والقوة، من الناحية الأخرى، تحل كل مسألة. وقد استغرق ذلك وقتًا، إلا إننا أدركنا ذلك في النهاية.

أنت ترى مثلًا أن قارتنا القديمة أوروبا بدأت تتفلسف أخيرًا كما يجب، فلم نعد نقول كما كنا نفعل في الأيام الساذجة: "هذا هو رأيي، فما هو اعتراضك؟" وإنما أصبحنا سلسي القياد، واستبدلنا المحادثات بالبيان المشترك، وصرنا نقول: "هذه هي الحقيقة. ويمكنك أن تبحثها بقدر ما تشاء، فذلك لا يهمنا، ولكن ستكون هنالك خلال بضع سنوات شرطة ستقول لك إننا كنا على حق"

آه، هذا الكوكب العزيز العتيق! لقد اتضح كل شيء الآن، ونحن نعرف أنفسنا، ونعرف الآن ماذا نستطيع أن نفعل. خذني أنا مثلًا، لنغير الأمثلة بدلًا من أن نغير المواضيع فقد كنت دائمًا أريد أن يخدمني الآخرون باسمين. فإذا كانت الخادمة كئيبة، فإنها تسمم أيامي. ولها الحق في ألا تكون مبتهجة، بالتأكيد، ولكنني قلت لنفسي إنه من الأفضل للخادمة أن تؤدي واجباتها ضاحكة من أن تفعل ذلك دامعة العينين. والحق أن ذلك كان أفضل بالنسبة لي.

ومع ذلك، وبدون أن يكون في الأمر أي فخر، أجد أن استنتاجي هذا ليس غبيًا. وكذلك فقد كنت دائمًا أرفض أن أتناول طعامي في المطاعم الصينية، لماذا؟ لأنه حين يكون الشرقيون صامتين وبحضور البيض، فإنهم يضمرون الاحتقار دائمًا. وهم بالطبع يعبرون عن ذلك في ملامحهم أثناء الخدمة. فكيف سيكون في وسعك بعد

ذلك أن تستمتع بالدجاجة المحمصة؟ وعلاوة على ذلك، كيف يكون في وسعك أن تنظر إليهم ثم تؤمن بأنك على حق؟

بيني وبينك، ألا ترى أن العبودية، خاصة إذا كانت تصحبها ابتسامة، هي حتمية؟ ولكننا يجب أن لا نقر بذلك. أليس من الأفضل لذلك الذي لا يستطيع أن يستغني عن العبيد أن يسميهم أحرارًا؟ أولًا من حيث المبادىء، وثانيًا لكي لا تدفعهم إلى اليأس. إننا مدينون لهم بذلك التعويض، أليس كذلك؟ وهكذا، فإنهم سيستمرون في الابتسام، بينما نحافظ نحن على ضميرنا. وإلا فيجب علينا أن نراجع رأينا عن أنفسنا مرة أخرى، ويؤدي بنا العذاب إلى الجنون، أو أن نصبح متواضعين– لأن كل شيء سيكون محتملًا. وبالنتيجة، فلن تكون هنالك لوحات دكاكين، وهذا الأمر بالذات يسبب صدمة. ثم إنه إذا قال كل واحد كل شيء وكشف عن مهنته الحقيقية وهويته فإننا لن نعرف اين سيصل بنا الأمر! تصور أن نكتب على بطاقات الزيارة: السيد دوبون، الفيلسوف المتقلب، أو المالك المسيحي، أو الإنساني الفاسق– هنالك حقًا مجال واسع للاختيار. ولكن ذلك سيكون جحيمًا! أجل، لا بد أن الجحيم كذلك: الشوارع المليئة بلوحات الدكاكين، دون أن تكون هنالك طريقة يوضح بها المرء نفسه، وإنما يحصل كل واحد على تسمية نهائية له.

أنت مثلًا، يا مواطني العزيز، تمهل وانظر ماذا ستكون لوحتك. أتصمت؟ حسنًا، ستخبرني فيما بعد. إنني أعرف لوحتي على كل حال: وجه مزدوج، جانوس(1) فاتن، وفوق ذلك شعار المحل: "لا تثق بذلك". وأما على بطاقتي فتجد: "جان بابتيست كلامانس، ممثل مسرحي". لماذا، بل إنني اكتشفت شيئًا مباشرة بعد المساء الذي أخبرتك عنه.

فبينما كنت أترك الأعمى في الناحية الأخرى من الشارع التي كنت أقوده إليها،

---

(1) جانوس إله إيطالي (إله البداية والنهاية) يصورونه برأسين متعاكسين ويتضمن معنى الخداع.

كنت ألمس قبعتي له. ومن الواضح أن تلك اللمسة لم تكن من أجله، لإنه لا يستطيع أن يراها. فلمن كانت موجهة، للجمهور. وبعد أن ألعب دوري، أنحني. ليس سيئًا، ها؟ وفي يوم آخر خلال الفترة ذاتها، أجبت سائق سيارة كان يشكرني لأنني ساعدته، قائلًا أنه لم يكن أحد ليفعل ذلك القدر، وكنت أعني بالطبع أن الجميع كانوا سيفعلون ذلك. ولكن ذلك الخطأ خيم ثقيلًا على صدري، لأنه بدلًا من التواضع، أخذت قطعة الكيك لنفسي.

لا بد أن أقر بذلك بخضوع، يا مواطني العزيز، فقد كنت أتفجر بالغرور. أنا، أنا، أنا، هي اللازمة التي رافقت حياتي كلها، وكان من الممكن سماعها في كل شيء كنت أقوله. ولم أكن قادرًا على الكلام بدون أن أفخر، خاصة إذا كنت أفعل ذلك بالحصافة الهائلة التي كنت مختصًا بها. إنه لصحيح تمامًا القول بأنني قد عشت حياة دائمة من الحرية والقوة.

لقد كنت ببساطة أشعر بالتحرر بالنسبة للجميع السبب بديع، هو أنني لم أؤمن بوجود أحد يساويني منزلة أو شأنًا. وكنت أعتبر نفسي أشد ذكاء من أي شخص آخر، كما أخبرتك، وإنما أيضًا، أشد حساسية، وبراعة، في إطلاق الرصاص، في السياقة، في الحب. حتى في الحقول التي كان في وسعي أن أكتشف فيها قلة شأني كالتنس، مثلًا، الذي لم أكن فيه غير لاعب عابر، وكان صعب علي ألا أعتقد أنني، إذا أتيح لي وقت قصير للتمرين، أستطيع أن أفوز على أفضل اللاعبين. ولم أقر في نفسي إلا بالتفوق، وهذا يفسر نواياي الحسنة ووقاري. وحين كنت أهتم بالآخرين، فقد كنت أفعل ذلك متنازلًا، حرًا تمامًا، وكان الفضل في ذلك كله يعود لي أنا لأن احترامي لنفسي يرتفع درجة واحدة.

ومع حقائق أخرى أيضًا، اكتشفت كل تلك الحقائق شيئًا فشيئًا في الفترة التي تبعت ذلك المساء الذي أخبرتك عنه. ولم أفعل ذلك كله فجأة، ولا بوضوح شديد؛

فقد كان عليّ أولًا أن أستعيد ذكرياتي، وبدرجات متدرجة، بدأت أرى بوضوح أشد، لأنني كنت أتعلم شيئًا فشيئًا ما كنت أعرفه. وحتى ذلك الحين، كانت تعينني قابلية عجيبة على النسيان. كنت أنسى كل شيء، اعتبارًا من قراراتي. ولم يكن هنالك شيء ليهمني أهمية جوهرية.

وكانت الحرب والانتحار والحب والبؤس أمورًا تحظى باهتمامي، طبعًا، حين كانت تضطرني الظروف، ولكن ذلك كان اهتمامًا سطحيًا مجاملًا. وكنت في بعض الأحيان أتظاهر بالانفعال بسبب مسألة خارجة عن نطاق حياتي اليومية. ولكنني لم أكن أساسًا لآخذ لنفسي أي دور فيها، ما عدا حين يهدد الأمر حريتي. كيف يتسنى لي أن أعبر عن ذلك؟ كان كل شيء يتجنب طريقي– أجل كل شيء يسقط عن نطاق مسؤوليتي.

ولكي أكون عادلًا، يجب أن أذكر أن نسياني كان في بعض الأحيان يستحق الشكر. لقد لاحظت أن هنالك قومًا يتألف دينهم من غفران كل الإساءات، وهم يغتفرون الإساءة ولكنهم لا ينسونها، ألم تلاحظ ذلك؟ ولكنني لم أكن قادرًا على غفران الإساءات، وإنما كنت بالنتيجة أنساها تدريجيًا. وكان الشخص الذي يكرهني لا يستطيع أن يفعل شيئًا أمام لمسي القبعة له مبتسمًا. فوفقًا لطبيعته، كان يعجب بنبلي ونبل شخصيتي، أو يحتقر تربيتي السيئة، بدون أن يدرك أن الأمر كان أبسط من ذلك: لأنني كنت قد نسيت حتى اسمه. وهكذا فإن هذا التقلب الذي كان غالبًا يجعلني لا أكترث، أو أنكر، مثل هذه المسائل، كان يجعلني حليمًا كريمًا.

لقد عشت باستمرار بدون أن ترافقني أية استمرارية إلا تلك الاستمرارية اليومية التي كنت أقول بها أنا، أنا، أنا. ومن النساء اللواتي كن يدخلن حياتي كل يوم، من الفضائل أو السيئات التي كنت أفعلها كل يوم، من يوم لآخر، كالكلاب– ولكن نفسي كانت مطمئنة إلى مركزها في كل يوم. وهكذا كنت أتقدم على سطح الحياة، في

دنيا الكلمات، أجل، كما لو أن الأمر كان في دنيا الكلمات، وليس في الواقع. كل تلك الكتب التي لم أقرأها إلا نادرًا، وهؤلاء الأصدقاء الذين لم أكن أحبهم إلا قليلًا، وتلك المدينة التي لم أكن أزورها، وتلك النساء اللواتي كنت أملكهن قليلًا!

وكنت أؤدي الإشارات بسبب من ضيقي أو غياب ذهني. ثم كانت الكيانات البشرية تحضر، وتريد أن تتعلق، ولكن كان ذلك سيئًا– بالنسبة لها. أما بالنسبة لي، فقد كنت أنسي. ولم أتذكر شيئًا غير نفسي أبدًا.

وتدريجيًا عادت ذاكرتي على كل حال، أو أنني عدت إليها، ووجدت فيها التذكر الذي كان ينتظرني. ولكن قبل أن أخبرك عنه، اسمح لي يا مواطني العزيز أن أقدم لك بعض الأمثلة (وأنا واثق من أنها ستفيدك) عما اكتشفته أثناء بحثي.

فقد كنت في يوم من الأيام في سيارتي، وبينما كنت بطيئًا جدًا في الانطلاق بها أثناء اشتعال النور الأخضر، بينما كان الآخرون من زملائي المواطنين صاخبين خلفي، تذكرت فجاة مثالًا آخر حدث في نفس تلك الظروف. دراجة بخارية كان يركبها رجل ضئيل يضع على عينيه نظارات انطلقت بكل سرعتها وأخذت مكانها أمامي عند الضوء الأحمر. وحين أوقف الرجل الدراجة انطفأت ماكينتها، وراح يحاول أن يشغلها ثانية، ولكن عبثًا. وحين تغير النور، سألته بكل مجاملة أن يبعد دراجته عن طريقي لكي أمر. وكان الرجل الضئيل قد بدأ يهتاج بسبب دراجته، ولهذا أجاب – طبقًا لقواعد المجاملة الباريسية – بأنني أستطيع أن أتسلق شجرة. وأصررت، وكنت مازلت مؤدبًا، ولكن كان هنالك ظل خفيف من نفاد الصبر في لهجتي.

وقيل لي أنني كنت أستطيع على أي حال أن أذهب إلى الجحيم، وفي ذلك الحين بدأت أبواق السيارات تصخب خلفي. وبثبات أشد، طلبت من محدثي أن يكون أكثر أدبًا وأن يدرك إنه كان يعطل المرور. والآن وقد أدرك ذلك الشخص الذي تسهل استثارته سوء نية دراجته البخارية، فقد أخبرني بأنني إذا كنت أريد أن

أحصل على ما سماه بطحن عظامي تمامًا فإنه سيسره أن يعطيني ذلك. وملأتني مثل هذه السخرية بغضب لا غبار عليه، فخرجت من سيارتي وفي نيتي أن أسحق هذا الشخص الخشن. لا أعتقد أنني جبان (ولكن ما هو الأمر الذي لا يعتقده المرء في نفسه!) وقد كنت أطول من خصمي بمقدار رأس، وكنت أعتمد دائمًا على عضلاتي. ولكنني ما أزال أعتقد أنني أنا الذي كنت سأحصل على طحن العظام، وليس هو.

ولكنني لم أضع قدمي بعد على الشارع، حين قفز رجل من بين الجمع المزدحم، واندفع نحوي، وقال لي أنني كنت أسفل السافلين، وإنه لن يدعني أضرب رجلًا تعترضه دراجة عاطلة بين ركبتيه. واستدرت نحو هذا الفارس، ولم أره في الواقع، ففي اللحظة التي التفت فيها، في الوقت نفسه بالضبط سمعت الدراجة البخارية تعربد من جديد، وتلقيت ضربة عنيفة على أذني. وقبل أن يتسنى لي الوقت لأسجل ما حدث، انطلقت الدراجة مبتعدة. وكنت مذهولًا، فسرت بصورة ميكانيكية نحو دار تانيون، بينما كان ينبعث صخب هائل مستاء من أبواق السيارات التي كانت تشكل خطًا طويلًا في تلك الأثناء. وتغير الضوء إلى الأخضر، وكنت مازلت مذهولًا نوعًا ما، وبدلًا من أن أضرب المعتوه الذي كان قد خاطبني، عدت إلى السيارة بكل لطف، وانطلقت بها. وبينما كنت سائرًا، حياني المعتوه قائلًا: "الأحمق المسكين"، عبارة مازلت أذكرها.

أتعتقد أن هذه القصة تافهة تمامًا؟ ربما. ولكنها استغرقت وقتًا طويلًا حتى استطعت نسيانها، وهذا هو المهم. ولكن كان لدي عذري. لقد تركت نفسي مضروبًا دون أن أرد، إلا إنني لا يمكن أن أتهم بالجبن. فقد فوجئت، وكان هنالك شخصان يتحدثان معي، وهكذا فقد كنت أخلط بين الأشياء، وأضافت أبواق السيارات ما كان ينقص ركبتي، ومع ذلك فقد كنت تعيسًا بسبب ذلك، وكأنني كنت قد خرقت قواعد الشرف. وأستطيع أن أرى نفسي وأنا أعود إلى السيارة دون رد فعل، تحت

رحمة نظرة الجمهور الساخرة، الجمهور الذي كان مستمتعًا بصورة خاصة لأنني كنت أرتدي بذلة زرقاء أنيقة جدًا كما أتذكر.

وأستطيع أيضًا أن أسمع "الأحمق المسكين"، تلك العبارة التي شعرت، برغم كل شيء، بأنه قد كان لها ما يبررها. وباختصار، كنت قد أصبت بانهيار أمام الجمهور. وكان ذلك نتيجة لسلسلة من الحوادث، حقًا، ولكن الحوادث والظروف موجودة دائمًا. والآن، حين أفكر بذلك، أستطيع أن أرى بوضوح ما كان عليّ أن أفعله.

رأيت نفسي أهبط على ذقن دارتانيون بضربة ماحقة، وأعود إلى سيارتي، وأتبع القرد الذي ضربني وألحق به، وأضايق دراجته عند طرف الشارع، وآخذه جانبًا، وأضربه الضرب الذي كان يستحقه تمامًا، وكنت أغير بعض تفاصيل هذا الفيلم وأعرضه في ذهني مئات المرات. ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان، وظللت بضعة أيام وأنا أمضغ الاستياء المر.

لماذا، إنها تمطر ثانية. ما هو رأيك في أن نقف تحت السقيفة؟ حسنًا. أين كنت؟ آه، الشرف! حسنًا، حين استعدت ذكرى تلك الحادثة، فهمت ما كانت تعني. ثم أن حلمي لم يطابق الحقائق. لقد حلمت– وهذا واضح الآن– بأن أكون رجلًا كاملًا ناجحًا في جعل نفسه محترمًا، في شخصه وفي مهنته. نصف سيردان، نصف ديغول، إذا شئت. باختصار، كنت أريد أن أكون المسيطر في كل شيء. ولهذا السبب كنت أتظاهر وأركز على عرض براعتي الجسمية أكثر من أية موهبة ذهنية. ولكن بعد أن تلقيت الضربة علنًا دون أن أرد عليها، لم يعد في وسعي أن أحتفظ في ذهني بتلك الصورة الجميلة عن نفسي.

ولو كنت صديق الحقيقة وصاحب الذكاء الذي كنت أدعيه، فأية أهمية كانت ستكون لتلك الحادثة؟ لقد نسيها أولئك الذين رأوها فعلًا، ولم أكن لأتهم نفسي بالغضب من لا شيء، ولم أكن لأتهم نفسي، بعد أن غضبت، بعدم النجاح في

مواجهة النتائج التي يستتبعها غضبي، لعدم حضور ذهني. وبدلًا من ذلك، كنت متلهفًا إلى الانتقام، إلى الضرب، والفوز، وكأن رغبتي الأصيلة لم تكن تتمثل في أن أكون أذكى الناس أو أشدهم كرمًا، وإنما في أن أضرب كل من أشاء، وأن أكون الأقوى، باختصار، وبأشد الطرق بدائية.

والحقيقة هي أن أي شخص ذكي، كما تعرف، يحلم بأن يكون من رجال العصابات، وبأن يحكم المجتمع بالقوة فقط. ولما لم يكن الأمر بالسهولة التي تصورها بها الروايات البوليسية للذهن، فإن المرء يفعل ذلك غالبًا بواسطة السياسية، وينضم إلى أشد الأحزاب قسوة. وماذا يهم، بعد كل ذلك، إذا كان المرء حين يخضع ذهنه يفلح في السيطرة على الجميع؟ لقد اكتشفت في نفسي أحلامًا عذابًا عن الاضطهاد.

لقد علمت على الأقل بأنني كنت أقف في جانب المذنبين، والمتهمين، طالما أن جرائمهم لم تكن لتسبب لي أي أذى. كانت ذنوبهم تجعلني بليغًا لأنني لم أكن ضحيتهم. وحين كنت أتلقى تهديدًا فإنني لم أكن أصبح قاضيًا بدوري، وإنما أكثر من ذلك، كنت سيدًا سهل الاستياء، يريد بصرف النظر عن كل القوانين أن يصرع المسيء أرضًا ويجعله يزحف على ركبتيه. وبعد ذلك، يا مواطني العزيز، فمن الصعب الاستمرار في الاعتقاد بصورة جادة بأن المرء يملك ميلًا أساسيًا إلى العدالة، وبأنه المحامي الذي قدر له أن يدافع عن الأرملة واليتيم.

وما دام المطر يشتد، ولدينا الوقت الكافي، هل لي أن أخبرك باكتشاف آخر عثرت عليه بعد ذلك مباشرة في ذاكرتي؟ دعنا نجلس على هذه المصطبة بعيدًا عن المطر. مرت قرون طويلة على مدخني الغليون، يرقبون المطر نفسه وهو يهطل على القنوات ذاتها. إن ما يجب على أن أخبرك به هو صعب قليلًا. الأمر هذه المرة يخص امرأة. يجب عليك أن تعرف أولًا أنني كنت ناجحًا دائمًا مع النساء– دون أن أبذل مجهودًا كبيرًا. ولست أعني أنني أنجح في إسعادهن أو في إسعاد نفسي بواسطتهن.

كلا، وإنما أنجح فقط. كنت أحقق أهدافي حولي كلما أردت ذلك. كنت أُعتبر فاتنًا.

تأمل! أنت تعرف ما هي الفتنة: الطريقة التي تحصل بها على (نعم) دون أن تكون قد طلبت ذلك بوضوح. وكان هذا منطبقًا عليّ في ذلك الحين. أيدهشك ذلك؟ هيا، لا تنف ذلك. فبالوجه الذي تراه الآن، لا بد أن إنكارك ذلك طبيعي. يا للتعاسة، ولكن، بعد عمر ما، يكون كل شخص مسؤولًا عن وجهه. وجهي.. ولكن ما يهم؟ إنها لحقيقة – كنت أُعتبر فاتنًا، وقد عرفت كيف أستغل ذلك.

كنت حسن النية، بدون أن أتعمد ذلك، أو أنني كنت كذلك تقريبًا، وكانت علاقتي بالنساء طبيعية، حرة، سهلة، كما يقولون. ولم يكن فيها أي خداع، غير ذلك الذي تعتبره النساء مديحًا. كنت أحبهن، وهذا التعبير الفارغ يعني أنني لم أحب واحدة منهن. وكنت أعتبر كراهية النساء أمرًا عاديًا لا يخلو من الحماقة، كما أن كل النساء اللواتي عرفتهن تقريبًا كن يُلحن لي أفضل مني. ومع ذلك، فبوضعي لهن في هذه المنزلة، كنت أستفيد منهن أكثر من خدمتي لهن. كيف يستطيع المرء أن يفهم ذلك؟

الحب الصادق مستثنى هنا بالطبع – مرة أو مرتين في القرن، أو أكثر أو أقل، قليلًا. أما بقية الوقت، فليس هنالك غير الغرور والضيق. أما بالنسبة لي فإنني لم أكن الراهبة البرتغالية على أية حال. ولست قاسي القلب، كلا، مطلقًا– بالعكس، كنت فياضًا بالشفقة، مستعدًا دائمًا لذرف الدموع. وإنما تتجه دوافعي العاطفية نحوي دائمًا، وتنصب مشاعري في الشفقة على نفسي.

ولكن ليس صحيحًا أنني لم أحب أبدًا. لقد كان هنالك في حياتي حب كبير، كنت أنا مركزه دائمًا. ومن هذه الناحية، وبعد مصاعب الشباب المحترمة، صرت موضع الاهتمام مبكرًا، وتحكمت الشهوانية وحدها في حياتي العاطفية. وكنت أبحث عن الأهداف التي تحقق لي اللذة والغزو فقط. ثم أن جسمي ساعدني على ذلك، وكانت الطبيعة كريمة معي. وكنت فخورًا بذلك جدًا، وقد وجدت فيه لذة كبيرة –

دون أن أعرف الآن هل كانت تلك اللذة بدنية أم ارتكزت على الكبرياء الذاتي. ستقول بالطبع إنني بدأت أفخر ثانية، ولن أنكر ذلك، ولست أفخر لأنني أفعل ذلك، وإنما أفخر الآن بما كان حقيقيًا.

على كل حال، كانت شهوانيتي (ولأحدد نفسي بها) حقيقية بحيث كنت مستعدًا للتخلي عن أبي وأمي من أجل لذة عشر دقائق، بل كنت مستعدًا للحصول عليها ولو بكل مرارة– حقًا– خاصة من أجل لذة عشر دقائق، وأكثر من ذلك لو كنت أعرف أنه لن تعقبها مغامرة أخرى. كانت لدي مبادئي، بالتأكيد، كأن تكون زوجة الصديق مقدسة. ولكنني كنت أكف بكل إخلاص، قبل بضعة أيام من المغامرة، عن الشعور بالصداقة للزوج. ربما لا يكون في وسعي أن أسمي هذا شهوانية؟ إن الشهوانية ليست كريهة. دعنا نمضي أكثر في الأمر ونسمي ذلك ضعفًا، نوعًا من عجز أساسي عن رؤية أي شيء في الحب غير الشهوة.

وبعد كل ذلك، فإن ذلك الضعف كان مريحًا. فبامتزاجه بقابليتي على النسيان، صار أضمن لحريتي. وفي الوقت نفسه، وبواسطة مظهر من مظاهر الصعوبة والاستقلال اللذين منحني إياهما، فإنه سهل على الظفر بنجاحات أخرى. وكنتيجة لعدم كوني رومانتيكيًا، منحت العلاقة الغرامية شيئًا تستمر به. أن صديقاتنا الإناث يشتركن مع بونابارت في القول بأنهن يستطعن النجاح حيث يفشل الآخرون.

وفي هذا استطعت، أيضًا، أن أشبع شيئًا آخر بالإضافة إلى شهوانيتي، رغبتي في المقامرة. كنت أحب في النساء أولئك اللواتي يشتركن معي في لعبة ما، لعبة تتميز بالبراءة على الأقل. وأنت ترى أنني لا أستطيع احتمال السأم، ولذلك فإنني أتذوق الأمور الشاذة فقط في الحياة. وأية صحبة مهما كانت لامعة سرعان ما تسحقني، بينما لم أكن لأشعر بالسأم مع اللواتي كنت أميل إليهن. يؤلمني أن أعترف بذلك، ولكنني كنت سأتخلى عن عشرة أحاديث مع آينشتاين من أجل موعد مع فتاة جميلة

من فتيات الكورس في الكنيسة. صحيح إنني كنت سأحنّ في الموعد العاشر إلى آينشتاين أو إلى كتاب جاد. باختصار، لم أكن لأهتم بالمشاكل الرئيسية إلا في الفترات الواقعة بين بين إنها كاتي الصغيرة.

وغالبًا ما كان يحدث، أثناء وقوفي على جانب الطريق مع بعض الأصدقاء لمناقشة بعض الأمور نقاشًا متحمسًا، أن أضيع أطراف النقاش الذي كنت قد بلغته، لأن امرأة فاتنة كانت تعبر الشارع في تلك الأثناء، وهكذا كنت أمضي في اللعبة. وكنت أعرف أنهن لم يكن ميالات إلى أولئك الذين يُفصحون عن الغرض بسرعة. فلا بد أن يكون هنالك حديث أولًا، اهتمامات حبية، كما يسمين ذلك. ولم أكن قلقًا بشأن الخطب، لأنني كنت محاميًا، ولا بشأن النظرات، لأنني كنت ممثلًا هاويًا أثناء فترة خدمتي العسكرية. وكنت غالبًا ما أتبادل الأدوار، ولكن في المسرحية نفسها. هنالك مثلًا مشهد في التمثيلية اللا مفهومة "الشيء الغامض"، وعبارة: "وليس ذلك معقولًا، فلم أكن أريد أن يجتذبني ذلك بالتأكيد، بل كنت ضجرًا من الحب، إلخ....) وكانت تُمَثَّلُ دائمًا، رغم أنها من أقدم التمثيليات.

كانت هنالك أيضًا خدعة السعادة الغامضة التي لم تمنحها إياك امرأة أخرى، وقد لا يقود ذلك إلى أي شيء– وذلك حقًا هو كذلك (لأن المرء لا يستطيع أن يحمي نفسه أكثر)– ولكن يحدث أن ذلك يكون دائمًا فريدًا. وفوق ذلك، فقد كنت أفضل دائمًا خطبة صغيرة كانت تحظى بالقبول دائمًا، وأنا واثق أيضًا من أنك سترحب بها.

إن الجانب المهم في الفصل يكمن في الاعتراف المؤلم المستسلم بأنني لم أكن شيئًا، وإنه لم يكن الأمر ليستحق أن يتورط معي أحد، وأن حياتي كانت في مكان آخر، لا تمت بصلة لسعادة الحياة اليومية المألوفة – السعادة التي قد أكون سأفضلها على أي شيء آخر، ولكن الأوان قد فات. أما بالنسبة لفوات الأوان هذا، وأسبابه،

فكنت أتكتم، عالمًا بأنه من الأفضل دائمًا أن يذهب المرء إلى الفراش مصحوبًا بالغموض، ثم إنني، نوعًا ما، كنت أصدق ما كنت أقوله.

وكنت أحيا دوري، ولن يدهشك أن شريكاتي كن دائمًا يبدأن مثلي "بجس النبض" بحماسة. وكانت أشدهن حساسية تحاول أن تفهمني، وكان هذا يقودها إلى الاستسلام الممزوج بالحنين المكتئب. وأما الأخريات اللواتي كن يقنعن بمشاهدة ما كان يبدو علي من احترام لقواعد اللعبة، وحديثي اللبق قبل أن أبدأ التمثيلية، فقد كن يمضين بدون إبطاء نحو الواقع. وهذا يعني أنني فزت – أضعاف ذلك أيضًا، ما دمت، بالإضافة إلى الاشتهاء الذي كنت أشعر به نحوهن، أرضي حبي لنفسي عبر تفّحصي في كل مرة لقواي الخاصة.

وكان هذا صحيحًا إلى درجة إنه إذا كانت بينهن من لا يُشبِعن إلا قليلًا من شهوانيني كنت أحاول مع ذلك أن أستأنف العلاقة معهن، في فترات طويلة، تساعدني في ذلك بلا شك تلك الرغبة الغريبة التي يثيرها الغياب والانهماك في الصلة المستعادة فجأة، وكذلك لكي أعرف هل أن علاقاتنا لا تزال قائمة، وإنه من حقي أنا وحدي أن أدعمها.

وكنت أحيانًا أذهب إلى حد جعلهن يقسمن إلا يسلمنا أنفسهن لأي رجل غيري لكي أطمئن مخاوفي من ذلك نهائيًا، ولكن قلبي، على كل حال، لم يلعب أي دور في تلك المخاوف، ولا خيالي. كان هنالك نوع معين من الادعاء متجسدًا في شخصي بحيث كان يصعب علي أن أتصور، برغم الحقائق، أن امرأة كانت لي مرة يمكن أن تكون لأحد آخر على الإطلاق.

ولكن العهد الذي أقسمن عليه حررني بينما كان يقيدهن، وحالما كنت أعرف أنهن لن يكن لأي شخص آخر، كنت أستطيع أن أقرر قطع العلاقة– الأمر الذي لولاه لكان ذلك مستحيلًا بالنسبة لي. وبقدر ما كان الأمر يخصهن فإنني كنت قد

ضمنت لنفسي الحماية نهائيًا وطمأنت قوتي وقتًا طويلًا. غريب، أليس كذلك؟ ولكن الأمر كان هكذا حقًا، يا مواطني العزيز. إن بعضهن يصرخن: "أحبني!" وأخريات: "لا تحبني!" ولكن نوعًا معينًا منهن، بل أسوأهن وأتعسهن، كن يصرخن: "لا تحبني، ولكن كن مخلصًا لي!"

وما عدا ذلك فإن الخلاص من المشاكل لا يكون مضمونًا، وعلى المرء أن يبدأ من جديد مع كل شخص جديد. وكنتيجة لبدء الأمر من جديد مرات ومرات، فإن المرء يتعود على ذلك، ويأتي الخطاب بدون تفكير ويتدفق الفيض، وتجد نفسك في يوم من الأيام وأنت تأخذ دون أن تشتهي ذلك. صدقني إن الامتناع عن أخذ ما لا يشتهيه المرء هو، بالنسبة لبعض الرجال على الأقل، أصعب شيء في العالم.

وهذا هو ما حدث بالتالي، ولا داعي لأن أخبرك من هي، ما عدا إنها كانت قد اجتذبتني، دون أن تثيرني حقًا، بطريقتها السلبية الحادة. لقد كانت تجربة مقروءة حقًا، كما كان علي أن أتوقع، ولكن لم تبق في نفسي أية تعقيدات، وإنما نسيتها بسرعة ولم أرها بعد ذلك. وقد ظننت أنها لم تلاحظ أي شيء بل إنها لم تكن لتتصور أنه يمكن أن يكون لها رأي. ثم أن طريقتها السلبية كانت في نظري تفصلها عن العالم. وعلى كل حال، فبعد بضعة أسابيع علمت أنها قد أخبرت فتاة أخرى بنقائصي. وشعرت في الحال بأنني كنت ضحية الخداع نوعًا ما، وأنها لم تكن سلبية كما ظننت، وأنه لم يكن يعوزها الإدلاء بحكم.

ثم هززت كتفي وتظاهرت بالضحك. بل أنني ضحكت فعلًا، فمن الواضح أن الحادثة لم تكن مهمة، وإذا كان هنالك أي مجال يكون التواضع فيه قاعدة، أليس ذلك المجال هو الجنس، بكل ما فيه من الأمور غير المتوقعة؟ ولكن لا، فكل منا يحاول أن يتظاهر بالأمور حتى حين نكون وحيدين. وبالرغم من أني هززت كتفي غير مكترث، فماذا كان سلوكي الحقيقي يا ترى؟ لقد رأيت المرأة ثانية بعد فترة قصيرة،

وفعلت كل ما كان ضروريًا لاجتذابها واستعادتها ثانية. ولم يكن ذلك صعبًا جدًا، لأنهن لا يردن أيضًا أن ينتهين بالفشل. ومنذ ذلك الحين، ودون أن أتعمد ذلك بدأت في الواقع بإذلالها بكل طريقة. كنت أتخلى عنها ثم أستعيدها وأضطرها إلى الاستسلام في أوقات غير مناسبة، وأعاملها بكل وحشية، بكل طريقة، بحيث أنني بالنتيجة ارتبطت بها تمامًا كما أتصور ارتباط السجان بالسجين. واستمر ذلك حتى اليوم الذي عبرت فيه عن امتنانها بصوت عال لما كان يستعبدها، وكان ذلك في خضم فوضى اللذة المتوترة المؤلمة. وفي ذلك اليوم نفسه بدأت أبتعد عنها، ونسيتها منذ ذلك الحين.

سأتفق معك، برغم صمتك المؤدب، في أن تلك المغامرة ليست جميلة جدًا. ولكن فكر في حياتك فقط، يا مواطني العزيز! ابحث في ذاكرتك، وربما ستعثر على قصة مشابهة ستخبرني بها فيما بعد. على كل حال، كنت حين أذكر ذلك الأمر أضحك ثانية. ولكن ذلك الضحك كان من نوع آخر، يشبه تقريبًا ذلك الضحك الذي سمعته خلفي على جسر الفنون. كنت أضحك من خطبي ومرافعاتي في المحكمة. بل كنت أضحك من خطبي في المحكمة أكثر من ضحكي من خطبي للنساء، فلم أكن لأكذب كثيرًا على النساء.

كانت الفطرة تتحدث في سلوكي بوضوح، وبدون تزييف. وعملية الجماع، مثلًا هي اعتراف. والأنانية تصرخ عاليًا، والغرور يكشف عن نفسه، وإلا فإن الكرم الحقيقي يكشف عن نفسه، وكنت في تلك القصة المؤسفة، أكثر مما كنت في كل مغامراتي الأخرى، أبلغ تعبيرًا مما كنت أظن. لقد ذكرت من أنا وكيف كان في وسعي أن أعيش. وبرغم المظاهر، كنت أكثر قيمة في حياتي الخاصة – حتى حين (ربما يستطيع المرء أن يقول، خاصة حين) تصرفت كما أخبرتك – مما كنت أفعل تحليقاتي المهنية العظيمة حول العدالة والبراءة.

وكنت على الأقل حين أرى نفسي أفعل ذلك مع الآخرين، غير قادر على خداع نفسي بشأن حقيقة طبيعتي. فليس هنالك شخص منافق في ملاذه – هل كنت قرأت ذلك أم أنني أفكر به شخصيًا يا مواطني العزيز؟

وهكذا، فحين تفحصت المتاعب التي قاسيت منها أثناء فصم علاقاتي بامرأة – متاعب كانت تورطني في وساطات كثيرة – لم أكن ألوم رقة قلبي. فلم يكن ذلك هو الذي كان يضطربني حين كانت إحدى عشيقاتي تسأم انتظار ذروة عاطفتنا وتتحدث عن التخلي عني. كنت أنا الذي يقوم بالخطوة التالية في الحال، وأنا الذي يستسلم، وأنا الذي يكون بارعًا في التعبير، أما بالنسبة للود ورقة القلب، فقد كنت أثيرهما في النساء، مجربًا في نفسي مظاهرهما فقط – وإنما أكون مستثارًا قليلًا بهذا الرفض، وقلقًا أيضًا بسبب احتمال فقدان ود شخص ما. وكنت في بعض الأحيان أعتقد حقًا أنني كنت أقاسي. ولكن الأنثى الثائرة لم تكن تستطيع غير أن تترك لي أنا مسألة التخلي عنها ونسيانها بدون مجهود، كما كنت أنسى وجودها حين تقرر، بعكس ذلك، أن تعود.

كلا، لم يكن حبًا أو كرمًا ذلك الذي كان يوقظني حين أكون في خطر من أن أصبح موضع النسيان، وإنما كانت تلك هي الرغبة في أن أكون محبوبًا وآخذ ما كنت في رأيي أستحقه. وفي اللحظة التي أكون فيها محبوبًا، وتكون شريكتي منسية ثانية، كنت أتألق وأحلق في ذروة الفتنة، وأزداد جاذبية.

لأقل أيضًا، بالإضافة إلى ذلك، أنني في اللحظة التي أحصل فيها على ذلك الود كنت أشعر بعبئه. وفي لحظات استيائي كنت أقول لنفسي إن الحل المثالي هو في موت الشخص الذي كنت مهتمًا به ولكن موتها، من ناحية، يكون قد ثبت علاقتنا ورسخها، ومن الناحية الأخرى، يكون قد أزال قسريتها، بيد أن المرء لا يستطيع أن يحن إلى موت أي شخص، أو حتى في حالة التطرف، أن يخلي الكوكب من سكانه

ليستمتع بحرية لا يمكن تصورها بغير ذلك. كانت ميولي ضد ذلك، وكذلك كان حبي للبشرية.

العاطفة العميقة الوحيدة التي كنت أشعر بها أحيانًا في مثل هذه الأمور هي الشكر، حين يكون كل شيء سائرًا سيرًا حسنًا، وحين يكون في وسعي أن أستمتع، وليس فقط بالطمأنينة، وإنما بالحرية في أن أفعل ما أشاء – ولم أكن أكثر طيبة ومرحًا مع النساء أكثر من طيبتي ومرحي مع تلك التي أكون، قبل أن أراها، قد غادرت فراش امرأة أخرى. فكأنني كنت أحول إلى الأخرى الدين الذي كنت أشعر به نحو الأولى.

وعلى أية حال، ومهما كانت مشاعري تلوح مرتبكة، كانت النتيجة التي أحققها واضحة؛ فقد كنت أحتفظ بالود في مكان سهل المتناول، لكي أستخدمه حين كنت أحتاج إليه. وأنا أقر بأنني أستطيع أن أعيش سعيدًا، بشرط أن تكون كل النساء على هذه الأرض، أو أكبر عدد منهن، متجهات نحوي، في قلق أبيد، خاليات من الحياة المستقلة ومستعدات للاستجابة لندائي في أية لحظة، باختصار، يكن محكومًا عليهن بالعقر حتى اليوم الذي أتنازل فيه بالعطف عليهن.

وباختصار أيضًا، فلكي أعيش سعيدًا، كان من الضروري للمخلوقات التي كنت أختارها أن لا تعيش إطلاقًا؛ فعليها أن تأخذ حياتها، بصورة متقطعة، بأمر مني فقط.

آه، إنني لا أشعر بأية قناعة، صدقني، في إخبارك بهذا. فحين أفكر في ذلك الوقت الذي كنت فيه أطلب كل شيء بدون أن أدفع شيئًا، حين كنت أستخدم كل ذلك العدد من الناس في خدمتي، حين كنت أضع الناس في الثلاجة، إذا جاز لي أن اقول ذلك، لكي أحصل عليهم حين أشاء وفي اليوم الذي يعجبني، لا أعرف كيف أسمي الشعور الغريب الذي يتملكني. أليس هو الخجل؟ ربما؟ أخبرني، يا مواطني

العزيز، ألا يخز الخجل قليلًا؟ يفعل ذلك؟ حسنًا، ربما يكون ذلك خجلًا، إذن، أو واحدًا من تلك الانفعالات الحمقاء التي تتصل بالشرف.

يلوح لي على أية حال أن ذلك الشعور لم يتركني منذ المغامرة التي عثرت عليها في قعر ذاكرتي، التي لا أستطيع بعد الآن أن أؤجل إخبارك بها، رغم تحولاتي في الحديث، والجهود الخارقة التي أرجو أن تكون قد لمستها في شخصي.

انظر، لقد انقطع المطر! كن لطيفًا، وسر معي إلى البيت. إنني منهك إنهاكًا غريبًا، ليس لأنني تحدثت بكل هذا، ولكن لمجرد التفكير في المزيد الذي يجب علي أن أقوله. آه، حسنًا، ستكفي بضع كلمات لأخبرك باكتشافي الأساسي. ما هي فائدة أن أقول أكثر على كل حال؟ فلكي يقف التمثال عاريًا يجب أن تنطلق عنه الخطب الجميلة كما ينطلق عنه سرب الحمائم.

تلك الليلة بالذات في تشرين الثاني، قبل عامين أو ثلاثة أعوام من ذلك المساء الذي ظننت أنني سمعت فيه ذلك الضحك خلفي، كنت عائدًا إلى الضفة اليسرى وإلى بيتي بطريق بونت روايال. وكانت الساعة هي الواحدة بعد منتصف الليل، وكان يهطل مطر خفيف، أو رذاذ، وينتشر الناس في الشارع. وكنت قد تركت عشيقة لتوي، ولا بد أنها قد نامت في الحين.

وبينما كنت أستمتع بالتمشي، متخدرًا قليلًا، كان جسمي يهدأ ويرتوي بفيض من الدم الهادئ، هدوء الرذاذ الهاطل. وعبرت الجسر ومررت خلف قوام شخص كان منحنيًا على الحافلة، وكان يلوح عليه أنه كان يحملق في النهر.

وحين أمعنت النظر، رأيت فتاة نحيفة ترتدي السواد. وكان ظاهر رقبتها، باردًا رطبًا بين الشعر الأسود وياقة المعطف، يثيرني. ولكنني مضيت في طريقي بعد تردد دام لحظات.

وفي نهاية الجسر تبعت الرصيف نحو سان ميشيل حيث كنت أسكن. ولم أكن قد سرت أكثر من خمسين خطوة حين سمعت الصوت – الذي، بالرغم من المسافة، لاح عاليًا بصورة مرعبة، في صمت منتصف الليل – صوت جسم يرتطم بالماء.

ووقفت بغتة، ولكن دون أن أستدير إلى الخلف. وسمعت في الحال تقريبًا صراخًا تكرر عدة مرات، وكان ينحدر مع التيار، ثم انقطع فجأة. ولاح الصمت الذي تبع ذلك، حين سكن الليل ووجف أيضًا، أبديًا. وأردت أن أركض، ومع ذلك فإنني لم أتحرك. وكنت أرتعد، وأعتقد أن ذلك كان بسبب البرد والصدمة. وقلت لنفسي إنني يجب أن أسرع، وشعرت بضعف لا يقاوم يسيطر علي.

لقد نسيت ماذا كان تفكيري آنذاك. «فات الأوان، أبعد من المستطاع...» أو أنه كان شيئًا مثل ذلك. وكنت ما زلت أصغي بينما كنت واقفًا بلا حراك. ثم مضيت في طريقي، ببطء، تحت المطر. ولم أخبر أحدًا بذلك.

ولكن، ها نحن هنا. ها هو بيتي، ملجئي! غدًا؟ أجل، إذا أردت. أود أن آخذك إلى جزيرة ماركن لترى الزويدرزي. دعنا نتقابل في الحادية عشرة في حانة مدينة المكسيك. ماذا؟ تلك المرأة؟ آه لست أعرف. لست أعرف حقًا، فلم أقرأ الصحف في اليوم التالي أو في الأيام الأخرى.

نحن جميعاً قضايا استثنائية

قرية لعب، أليست كذلك؟ لا ينقص هذا المكان شيء من العراقة والخيال! ولكني لم آت بك إلى هذه الجزيرة من أجل ذلك، يا صديقي العزيز. فكل شخص يستطيع أن يريك أغطية رأس ريفية وأحذية خشبية وبيوتًا مزوقة يدخن فيها الصيادون تبغًا مختارًا، وتحيط بهم رائحة الأثاث. إنني أحد الناس، من الناحية الأخرى، الذين يستطيعون أن يروك الأمور المهمة هنا حقًا.

لقد بلغنا السد، وعلينا أن نتتبعه لنبتعد ما في وسعنا عن هذه البيوت الساحرة أكثر مما يجب. أرجوك، لنجلس هنا، حسنًا. ما هو رأيك؟ أليس هذا المنظر أجمل المناظر الطبيعية السلبية؟ انظر على يسارك إلى تلك الكومة من الرماد التي يسمونها هنا تلًا، والسد الرمادي على اليمين، والساحل الأزرق الشاحب عند أقدامنا، وأمامنا البحر بلون محلول الجير المخفف، بينما تعكس السماء الشاسعة صفحة الماء عديمة اللون. جحيمًا خانقًا مشبعًا بالرطوبة حقًا! كل شيء أفقي، دون أن يكون هنالك أي تغيير يريح النظر، والفضاء عديم اللون، والحياة ميتة. أليس ذلك هو العدم التام واللا شيئية الدائمة، واضحين للعين؟ ثم أنه ليس هنالك أي بشر، لا بشر هنالك! أنا وأنت نواجه الكوكب المهجور أخيرًا. السماء حية؟

أنت على حق يا صديقي العزيز. إنها تتكثف وتتجوف وتطلق أعمدة دوَّارة من الريح وتغلق بوابات سحابية. تلك هي الحمائم. ألم تلاحظ أن سماء هولندا تمتلئ بملايين الحمائم، التي لا يراها أحد بسبب ارتفاعها، وهي تصفق أجنحتها وتعلو وتهبط جماعات، وتملأ الفضاء السماوي بكتل كثيفة من الريش الرمادي الذي تنطلق به الريح هنا وهنالك؟ إن الحمائم تنتظر هنالك في الأعالي طيلة أيام السنة. وهي

تدور فوق الأرض وتنظر إلى الأسفل وتود لو تهبط. ولكن، ليس هنالك غير البحر والقنوات، والسطوح المغطاة بلوحات الدكاكين، دون أن يكون هنالك رأس تحط عليه.

أنت لا تفهم ما أعني؟ سأقر بأنها كي.... لقد نسيت الموضوع الذي كنت أتحدث فيه. وأضعت ذلك الوضوح الذي كان يمتدحه الأصدقاء في شخصي. إنني أقول «أصدقائي»، أيضًا، بصورة تقليدية، وليس لدي الآن أي أصدقاء، وإنما لدي فقط شركاء في الإثم. ولكي أعوض عن ذلك، زاد عددهم، إنهم البشر جميعًا. وبين هؤلاء البشر، أنت أول الجميع. فالذي هو قريب وفي متناول اليد هو الأول دائمًا. وكيف لي أن أعرف أنه ليس لدي أصدقاء؟ أن ذلك سهل جدًا. لقد اكتشفته في اليوم الذي فكرت فيه بالانتحار لأعبث بمشاعرهم، لأعاقبهم نوعًا ما.

ولكن، أعاقب من؟ سيندهش البعض، ولن يشعر أحد بأنه عوقب. لقد أدركت أنه لم يكن لدي أصدقاء. وحتى لو كان لدي أصدقاء فما كنت لأصبح في حال أفضل. ولو كنت قادرًا على الانتحار بحيث أستطيع أن أرى ما سيفعلونه بعد ذلك فإن الأمر كان سيستحق أن أنتحر من أجله.

ولكن أعماق الأرض مظلمة يا صديقي العزيز، والتابوت سميك والكفن يمنع النور. هنالك عيون الروح – بالتأكيد – إذا كانت هنالك روح وكان لها عيون! ولكنك ترى أننا لسنا متأكدين ولا يمكننا أن نتأكد. وإلا فسيكون هنالك حل، وسيكون في وسع المرء أن يكون جادًا. إن البشر لا يقتنعون أبدًا بأسبابك وصدقك وجدية عذابك إلا حين تموت. وما دمت حيًا فإن قضيتك مغمورة في الشك، وليس لك أي حق في الحصول على غير شكوكهم. وهكذا فإذا كان هنالك أي يقين من أن المرء يستطيع أن يستمتع بالمشهد، فإن الأمر سيستحق أن يثبت لهم الأمور التي ليسوا على استعداد لتصديقها وهكذا يدهشهم. ولكنك تنتحر، وماذا يهم إذا كانوا

سيصـدقونك أم لا؟ فلـن تكـون موجـودًا لتشـهد دهشـتهم وأسـفهم (العـابر علـى أفضله)، ولن تشاهد، كما يحلم كل إنسان، حتى ولا جنازتك. ولكي لا تكون قضية غامضة، يجب عليك ألا تكون موجودًا، هذا هو كل شيء.

ثم، أليس الأمر أفضل هكذا؟ سنتعذب كثيرًا بسبب لا اكتراثهم. لقد قالت فتاة لأبيها الذي منعها من الزواج بخاطب ممتاز: «ستدفع ثمن ذلك!» وانتحرت. ولكن الوالد لم يدفع شيئًا. لقد كان يحب الصيد، وبعد ثلاثة أسابيع عاد إلى النهر – لينسى، كما قال. وقد كان محقًا، ونسي، والحقيقة هي أن عكس ذلك فقط هو ما كان سيثير دهشتنا حقًا. أنت تظن أنك تموت لتعاقب زوجتك، بينما أنت في الواقع تطلق سراحها. ومن الأفضل لك أن ترى ذلك. وبالإضافة إلى ذلك دعنا لا نبحث عبثًا. إنني أحب الحياة – هذا هو ضعفي الحقيقي. أحبها بحيث أنني لا أستطيع أن أتصور ما هو ليس بحياة. ومثل هذه اللهفة تتميز بشيء من الرعاعية، ألا تعتقد ذلك؟ فالأرستقراطية لا تستطيع أن تتصور نفسها بدون بعض البعد الذي يحيط بها وبحياتها.

والمرء يموت إذا كان ذلك ضروريًا، وهو ينكسر أكثر من أن ينحني. ولكنني أنحني لأنني أستمر في حب نفسي. فبعد كل ما أخبرتك به، ماذا تظنني قد طورت في نفسي؟ مثلًا؟ سأمًا من نفسي؟ هيا، هيا، لقد كنت أسأم من الآخرين على الأخص. وقد كنت أعرف نقائصي وآسف لها حقًا. ولكنني مضيت في نسيانها بعناد مستحق. واستمر اتهام الآخرين لي، يعكس ذلك بصورة دائمة في قلبي، بالطبع – هل فوجئت بذلك؟ تظن أنه غير منطقي؟

ولكن المسألة هي ألا نظل منطقيين. المسألة هي أن نتملص، وفوق ذلك – أجل، فوق ذلك، المسألة هي أن نتخلص من حكم الآخرين. ولست أعني بذلك تجنب العقاب، لأن العقاب بدون حكم أمر يمكن احتماله. وله اسم، فضلًا عن هذا،

يضمن براءتنا.. إنه يدعي سوء الحظ، كلا، بالعكس، إنها مسألة التملص من الحكم، وتجنب أن يكون المرء محكومًا على الإطلاق، دون أن ينطق أحد بالحكم عليه.

ولكن المرء لا يستطيع أن يتملص من ذلك بسهولة؛ فنحن اليوم مستعدون للحكم قدر استعدادنا للجماع. مع هذا الاختلاف: إنه ليس هنالك نواقص نخشاها. وإذا كنت تشك في ذلك، استمع إلى حديث المائدة، أثناء شهر آب، في الفنادق الصيفية حيث يتلقى زملاؤنا المواطنون الكرام علاجًا من السأم. وإذا كنت لا تزال مترددًا في الاستنتاج، اقرأ كتابات رجالنا العظام الآن. أو لاحظ عائلتك، وسيعلمك ذلك الكثير. يا صديقي العزيز، دعنا نمنحهم أي عذر، مهما كان صغيرًا، ليحكموا علينا! وإلا فسيتركوننا أشلاء.

ونحن مضطرون إلى اتخاذ الاحتياطات التي يلجأ إليها مروضو الحيوانات. فإذا كان المروض سيء الحظ قبل أن يدخل القفص، فيجرح نفسه بينما هو يحلق ذقنه، فأي حفل سيكون للحيوانات الوحشية! لقد أدركت هذا في اللحظة التي ساورتني فيها الشكوك من أنني لم أكن موضع الإعجاب إلى ذلك الحد. ومنذ ذلك الحين لم أعد موضع ثقة. ولما كنت أنزف قليلًا، فلم يكن هنالك أي مهرب لي، لأن الوحوش ستلتهمني.

وظلت علاقاتي بمعاصري كذلك، ومع هذا فقد كانت شاذة. ولم يتغير أصدقائي، وكانوا في بعض الأحيان يستمرون في امتداح التوافق والطمأنينة اللذين كانوا يجدونهما في صحبتي، ولكنني كنت أدرك النشاز والاضطراب اللذين كانا يملآني. وكنت أشعر بأنني صرت سهل المأخذ، معرضًا لاتهام الناس. ولم يعد زملائي في نظري أولئك الناس المحترمين الذين كنت معتادًا عليهم. وتحطمت الدائرة التي كنت مركزها واصطفوا في صف يشبه صف الحكام على منصة القضاء.

والحق أنني في اللحظة التي عرفت فيها أن هنالك شيئًا يصدر حكمه علي،

أدركت أنه كان في الناس ميل لا يقاوم لإصدار الأحكام. أجل، كانوا هنالك كما كانوا من قبل، ولكنهم كانوا يضحكون. أو أنه قد لاح لي أن كل واحد كنت أواجهه كان ينظر إلي بابتسامة خفية. وكان في نفسي أيضًا، في ذلك الحين، انطباع بأن الناس كانوا يدفعونني، والحق أنني تعثرت مرتين أو ثلاثًا حين كنت أدخل المحلات العامة. بل إنني سقطت على الأرض في إحدى المرات. ولم يستغرق الديكارتي الفرنسي الكامن في نفسي وقتًا طويلًا ليقبض على نفسه ويرجع كل تلك الحوادث إلى القوة الوحيدة المعقولة – أي الصدفة. ومع ذلك فقد ظلت الشكوك في محلها.

واستثير اهتمامي مرة، ولم يكن صعبًا بالنسبة لي أن أكتشف أنه كان لي أعداء في مهنتي أولًا، وكذلك في حياتي الاجتماعية. كنت قد أسديت يدًا بيضاء للبعض، وكان هنالك آخرون ممن كان يجب علي أن أنعم عليهم. وكان ذلك كله طبيعيًا طبعًا، وقد اكتشفته دون أن أحزن كثيرًا. ومن الناحية الأخرى فقد كان أصعب وأشد ألمًا بالنسبة لي، أن أقر بأنه كان لدي أعداء بين الناس لم أكن أعرفهم إلا قليلًا، وأنني لم أكن أعرفهم أبدًا.

كنت أعتقد دائمًا، بالذكاء الذي بينته لك، إن أولئك الذين لا يعرفونني لا يمكن أن يقاوموا حبهم لي فيما لو عرفوني. كلا أبدًا! لقد واجهت العداء خاصة بين أولئك الذين كانوا يعرفونني معرفة بعيدة دون أن أعرفهم شخصيًا. ولا شك في أنهم كانوا يظنونني أعيش حياة كاملة، مكرسة للسعادة، وهذا أمر لا يمكن اغتفاره.

إن ملامح النجاح، حين تلوح بطريقة معينة، تثير سخط الحمار. وكذلك فإن حياتي كانت مليئة إلى حد الانفجار. وبسبب ضيق الوقت، كنت أرفض كثيرًا من العروض. وكنت بعد ذلك أنسى رفضي للسبب نفسه. وكانت تلك العروض تقدم لي من أشخاص لم تكن حياتهم كاملة، ولهذا السبب بالذات فإن هؤلاء كانوا يتذكرون رفضي.

وهكذا، ففي النهاية، ولأخذ مثلًا واحدًا فقط، صارت النساء يكلفنني غاليًا؛ فالوقت الذي كنت أكرسه لهن لم أكن أستطيع أن أخصصه للرجال، ولم يكن هؤلاء يغتفرون لي ذلك؟ فهل هنالك طريقة للخروج من ذلك؟ إن نجاحاتك وسعادتك تغتفران لك فقط إذا كنت توافق بكرم على إشراك الآخرين معك. ولكن، لكي تكون سعيدًا فإنه يجب عليك ألا تكون مهتمًا بالآخرين أكثر مما يجب.

وبالنتيجة فلا مهرب هنالك. فإما أن تكون سعيدًا ومحكومًا، أو مبرءًا وشقيًا. فأما بالنسبة لي فإن العدالة كانت أعظم: لقد حكم علي بسبب النجاحات الماضية. وقد عشت زمنًا طويلًا وأنا أتوهم أن الجميع كانوا متفقين معي، بينما أمطرت علي الأحكام والسهام والسخرية من كل جانب، وكانت كلها غير مكترثة، باسمة. وحين انتبهت إلى ذلك صرت سهلًا، واستقبلت كل الجراح، في الوقت الذي كنت أفقد فيه كل قواي في الحال، وبدأ الكون كله يسخر مني.

وهذا هو ما لا يستطيع احتماله أي رجل (ما عدا أولئك الذين ليسوا بأحياء حقًا – بعبارة أخرى: الحكماء). والحقد هو المقابل الوحيد الممكن؛ فالناس يتسرعون في الحكم لكي لا يحكم عليهم أنفسهم. ماذا تتوقع؟ أن الفكرة التي تحضر الإنسان حضورًا طبيعيًا، وكأنها صادرة من صميم طبيعته، هي تلك القائلة ببراءته، ومن هذه الزاوية فإننا جميعًا مثل ذلك الفرنسي في معتقل بوخنوالد النازي الذي أصر على تسجيل شكوى عند الكاتب الذي كان هو نفسه سجينًا والذي كان يسجل وصوله. شكوى! وضحك الكاتب ورفقاؤه وقالوا: «لا جدوى في ذلك أيها العجوز. إنك لا تسجل الشكاوى هنا». وقال الفرنسي: «ولكنك ترى يا سيدي أن قضيتي استثنائية. أنا بريء!».

نحن جميعًا قضايا استثنائية. ونحن جميعًا نود أن نستأنف ضد شيء ما! وكل واحد منا يصر على براءته بأي ثمن، حتى إذا كان عليه أن يتهم الجنس البشري كله

والسماء نفسها. وأنت لن تبهج شخصًا إذا مدحته على الجهود التي صار بواسطتها كريمًا أو ذكيًا. ومن الناحية الأخرى، فإنه سيغتبط إذا أبديت إعجابك بكرمه الطبيعي. وإذا عكسنا ذلك، وجدنا أنك إذا أخبرت مجرمًا بأن جريمته ليست بسبب طبيعته أو مزاياه، ولكن بسبب الظروف السيئة، فإنه سيكون شاكرًا لك جدًا.

وفي أثناء خطبة المحامي، يجد الفرصة للبكاء. ومع ذلك فليست هنالك أية مزية في أن يكون المرء أمينًا أو ذكيًا بالمولد، تمامًا كما أن المرء ليس مسؤولًا عن كونه مجرمًا بطبيعته وإنما بظروفه. ولكن هؤلاء الأنذال يبحثون عن المزايا الحسنة، أي اللامسؤولية، وهم يدعون بلا خجل بمبررات الطبيعة أو بأعذار الظروف، حتى إذا كانت متناقضة. والأمر الضروري هو أن هؤلاء يجب أن يكونوا أبرياء، كما أن فضائلهم بسبب كونها هبة طبيعية من المولد يجب ألا تكون موضع التساؤل، وأن أفعالهم السيئة التي تسببها الظروف السيئة الآنية يجب ألا تكون مؤقتة.

وكما أخبرتك، فالأمر لا يعدو التملص من الحكم. ولما كان التملص منه والحصول على الإعجاب والعذر لطبيعة المرء في وقت واحد، صعبًا. فإن الجميع يحاولون أن يكونوا أغنياء. لماذا؟ هل سألت نفسك يومًا؟ من أجل القوة، طبعًا. ولكن ذلك هو على الأخص لأن الثراء يحميك من الحكم عليك مباشرة ويبعدك عن جمهور النفق ويضعك في سيارة صقيلة الحواشي، ويعزلك في حدائق واسعة مسورة، وعربات خاصة، ومقصورات من الدرجة الأولى. الثراء يا صديقي العزيز، ليس تبرئة تمامًا، وإنما هو عفو، وهذا هو دائمًا أمر يستحق الأخذ.

قبل كل شيء، لا تصدق حين يسألك أصدقاؤك أن تكون مخلصًا لهم. إنهم يرجون فقط أن تشجعهم على الرأي الحسن الذي يرونه عن أنفسهم، وذلك بأن توفر لهم التأكيد الإضافي الذي يجدونه في وعدك لهم بالإخلاص. كيف يمكن أن يكون الإخلاص شرطًا للصداقة؟ إن حب الحقيقة بأي ثمن هو ميل لا يبقي على

شيء ولا شيء يقاومه. إنه من الشرور، وهو يكون في بعض الأحيان من الأمور المريحة، أو أنه يكون أنانية. ولهذا، فإذا وجدت نفسك في ذلك الموقف فلا تتردد: عِد بأن تقول الحقيقة، ثم الكذب بعد ذلك قدر استطاعتك؛ ذلك لأنك ستشبع رغبتهم الخفية وفي الوقت نفسه تبرهن برهانًا مضاعفًا على ودك لهم.

وهذا صحيح إلى درجة أننا نادرًا ما نشق بأولئك الذين هم أفضل منا. وإنما تميل أكثر إلى الفرار من صدقهم. وغالبًا ما نعترف، من الناحية الأخرى، لأولئك الذين هم مثلنا والذين يقاسموننا ما بنا من ضعف. وهكذا فنحن لا نريد أن نجعل أنفسنا أفضل أو أن يجعلنا الآخرون أفضل، لأننا يجب أن نخضع أولًا لحكم يثبت أنه ينقصنا شيء ما. ونحن نفضل فقط أن نكون موضع الشفقة وأن نلقى التشجيع في الاتجاه الذي نكون قد اخترناه. وباختصار، نحن نريد في الوقت نفسه أن نكف عن كوننا آثمين، دون أن نبذل مجهودًا لتنقية نفوسنا. ليس فينا ما يكفي من السخرية، كما ليس فينا ما يكفي من الفضيلة. وتنقصنا الطاقة الشريرة كما تنقصنا الطاقة الخيرية. أتعرف دانتي حقًا؟ يا للشيطان! أنت إذن تعرف أن دانتي يقبل فكرة الملائكة المحايدين في المعركة بين الله والشيطان، وهو يضعهم في أطراف الجحيم، وهذه المنطقة هي نوع من المدخل المبدئي إلى جحيمه، ونحن فيها يا صديقي العزيز.

الصبر؟ ربما تكون على حق. فإن انتظار يوم الحساب الأخير يتطلب صبرًا، ولكن حقيقة الأمر هي أننا على عجل من أمرنا. نحن على عجل حقًا بحيث اضطررت إلى جعل نفسي قاضيًا تائبًا. وعلى كل حال، فقد كان علي أولًا أن أعرف كيف أتصرف بالنسبة لاكتشافاتي، وأضع نفسي في مستوى ضحك المعاصرين. ومنذ المساء الذي نودي فيه علي – فقد نودي علي فعلًا – كان علي أن أجيب، أو أبحث عن الجواب على الأقل. ولم يكن ذلك سهلًا، لأنني ظللت أتعثر بعض الوقت. كنت سأتعلم من تلك الضحكة الدائمة والضاحكين، أولًا، كيف أرى في أعماقي بوضوح

وأكتشف أخيرًا أنني لم أكن بسيطًا. لا تبتسم، فهذه الحقيقة ليست بسيطة كما تلوح لك. فالأمور التي نسميها حقائق أساسية هي تلك التي نكتشفها بعد أن يكتشفها الآخرون.

ومهما كان ذلك، فبعد البحث الدقيق في نفسي، خرجت بالازدواجية الأساسية في الكائن البشري. ثم أدركت، كنتيجة لغوصي في ذاكرتي، أن التواضع ساعدني على التألق، والخضوع أعانني على السيطرة، والفضلية شجعتني على الطغيان. وكنت أشن الحرب بالطرق السلمية، وبالتالي كنت أحقق عبر الوسائل التي لا تلوح ذات علاقة بمصالحي كل ما كنت أشتهيه. فلم أكن لأشكو، مثلًا، من أن أحدًا لم يكن يكترث ليوم عيد ميلادي. بل إن الناس كانوا يندهشون، معجبين نوعًا ما، بسبب حصافتي بهذا الخصوص. ولكن سبب لا اكتراثي كان أشد حصافة من ذلك كله: لقد كنت أحن إلى أن أكون منسيًا لكي يكون في وسعي أن أشكو لنفسي، وقبل عدة أيام من ذلك التاريخ الكبير، (الذي كنت أعرفه جيدًا)، كنت حذرًا، متلهفًا إلى ألا أدع شيئًا يبدر مني فيثير انتباه أولئك الذين كنت أعتمد على عدم يقظتهم، أو ببعث ذاكرتهم (ألم أحاول مرة أن أمضي إلى حد تغيير تقويم أحد أصدقائي؟) وحين أحصل على الوحدة التامة، أستطيع أن أستسلم لمتعة التأسف الذاتي التي تتصف بالرجولة.

وهكذا فإن ظاهر جميع فضائلي لم يكن له غير باطن أقل قيمة. صحيح أن نقائصي كانت تفيدني من ناحية أخرى. هنالك مثلًا الضرورة التي كنت أحس بها لإخفاء الجانب الشرير من حياتي، تلك الضرورة التي منحتني ملامح باردة تلوح وكأنها ملامح الفضلية، كما أن لا اكتراثي جعلني محبوبًا، وأدت أنانيتي إلى كرمي، وسأتوقف هنا، لأن إحصاء عدد كبير من هذه المتناقضات سيربك المسألة التي أريد أن أوضحها. وبالرغم من أن مظهري الخارجي كان خشنًا إلا أنني لم أكن أستطيع أن

أقاوم دعوة من امرأة لتناول قدح شراب! وكن يعتبرني نشطًا، حيويًا، كما أن الفراش كان مملكتي. وكنت أعلن عن وفائي، ولست أظن أن هنالك شخصًا واحدًا أحببته ولم أخنه. ولكن خياناتي لم تقف في طريق وفائي بالطبع.

وكنت أنجز الأكداس الهائلة من العمل خلال فترات خمولي المتتابعة، ولم أكف عن مساعدة جاري، والفضل في هذا يعود إلى استمتاعي به. ولكنني مهما أعدت هذه الحقائق على نفسي فإنها لم تكن لتعطيني إلا تعزية سطحية. كنت في صباح بعض الأيام أثير القضية ضد نفسي بصورة كاملة، وأصل إلى أنني كنت أفضل في الاحتقار من أي شيء آخر. فكان الناس الذين ساعدتهم أكثر من الآخرين هم أولئك الذين كنت أحتقرهم أكثر. كنت أبصق يوميًا في وجوه كل العميان، بطريقة مشبعة بالمجاملة والثبات المحمل بالعاطفة.

أخبرني بصراحة، هل هنالك أي عذر لي؟ هنالك عذر أحد، ولكنه شرير إلى درجة أنني لا أستطيع أن آتي به. وعلى أي حال، فها هو: لم يكن في وسعي على الإطلاق أن أعتقد بأن شؤون البشر هي من الأمور الجدية، ولم تكن لدي أية فكرة عن مكمن الأمور الجدية، عدا معرفتي أن تلك الأمور لم تكن موجودة ضمن كل ما كنت آراه حولي – فقد لاح لي ذلك لعبة ممتعة وحسب، أو مملة. هنالك حقًا جهود ومعتقدات لم يكن في وسعي أن أفهمها.

وكنت دائمًا أنظر بدهشة، وببعض الشك، إلى تلك المخلوقات الغريبة التي كانت تموت من أجل المال، وتهلك يأسًا بسبب ضياع «مركز» أو تضحي بنفسها بطريقة سامية عالية من أجل رفاهية عائلتها.

كان في وسعي أن أفهم أكثر من ذلك الصديق الذي قرر أن ينقطع عن التدخين والذي استطاع أن ينجح في ذلك بواسطة الإرادة المجردة. وفي صباح أحد الأيام فتح الصحيفة وقرأ أنه قد تم تفجير القنبلة الذرية الأولى، ولما علم بما أحدثته

من نتائج باهرة هرع إلى دكان التبغ في الحال.

كنت في بعض الأحيان أتظاهر بأخذ الحياة مأخذًا جديًا، ولكن الحماقة الكامنة في تلك الجدية كانت سرعان ما تصيبني فأمضي في لعب دوري قدر استطاعتي. كنت ألعب دور القادر على الأمور، الذكي، الفاضل، المتمدن، المصدوم، الممعن في الرغبات، المجبول على الشعور بالرفقة مع الآخرين، الواعظ...

باختصار، ليست هنالك حاجة للاستمرار في ذلك. فلا بد أنك أدركت أنني كنت مثل هؤلاء الهولنديين الذين هم هنا دون أن يكونوا موجودين هنا. كنت غائبًا في اللحظة التي كنت أشغل فيها أكبر حيز ممكن من الفراغ. ولم أكن صادقًا في حياتي ولا متحمسًا، عدا حين كنت أمثل في التمثيليات التي كنا نقيمها لمتعتنا الخاصة. وفي الحالتين، كانت هنالك قواعد للعبة، غير جادة، وإنما كنا نستمتع بمراعاتها وكأنها كانت كذلك. وحتى الآن، فإن حفلات أيام الآحاد في الساحات الرياضية الحافلة بالناس، وفي المسرح الذي أحبه بأشد الاندفاع، هي الأماكن الوحيدة في العالم التي أشعر فيها بالبراءة.

ولكن من الذي سيعتبر مثل هذا الموقف مشروعًا في دنيا الحب والموت وأتعاب الفقراء؟ ومع ذلك، فماذا يمكننا أن نفعل بشأن ذلك؟ يمكنني أن أتصور حب أيزولده في القصص فقط، أو على خشبة المسرح. كان الناس يلوحون لي في بعض الأحيان، حين يكونون على فراش الموت، مقتنعين بأدوارهم. وكانت العبارات التي يتحدث بها زبائني المساكين تقع على مسمعي بطريقة تناسب النموذج ذاته. وهكذا، فلما كنت أعيش مع البشر دون أن أشاركهم في اهتماماتهم، لم يكن في وسعي أن أؤمن بالالتزامات التي كنت أفرضها على نفسي. كنت مجاملًا وكسولًا بحيث كان في وسعي أن أعيش بنسبة ما كان متوقعًا مني في مهنتي وعائلتي، أو حياتي المدنية.

ولكنني كنت أفعل ذلك كل مرة بشيء من اللا اكتراث الذي كان يفسد كل شيء. لقد عشت حياتي كلها وفق قانون مزدوج. وكانت أشد أفعالي جدية هي في الغالب

تلك التي كنت أقل اشتراكًا فيها. ألم يكن ذلك، بعد كل هذا، السبب في عدم استطاعتي منح الغفران لنفسي، بالإضافة إلى أخطائي، الأمر الذي جعلني أثور بأشد العنف ضد الحكم الذي كنت أشعر به يتكون في نفسي وحولي، والذي اضطرني إلى البحث عن مهرب؟

استمرت حياتي فترة من الزمن في مظهرها الخارجي، وكأن شيئًا لم يتغير. كنت على القضبان، منطلقًا إلى الأمام، وازداد مديح الناس لي، وكأن ذلك كان مقصودًا. وهذا هو بالضبط مصدر المتاعب. أنت تذكر جيدًا المثل الذي يقول: «الويل لك حين يتحدث الناس جميعًا بالخير عنك! «آه، إن قائل هذه العبارة يتحدث بالحكمة! الويل لي! وهكذا، فإن الماكينة بدأت تضطرب وتتوقف أحيانًا دون أن يكون لذلك تفسير.

وبعد ذلك انبثق التفكير في الموت في حياتي اليومية، وبدأت أقيس السنوات التي تفصلني عن نهايتي، وأفتش عن أمثلة مشابهة لي بين أولئك الذين هم في مثل عمري والذين كانوا موتى في ذلك الحين. وقد عذبني التفكير في أنني قد لا أجد الوقت الكافي للقيام بمسؤولياتي. أية مسؤوليات؟ لم تكن لدي فكرة عن ذلك، بصراحة، هل كانت هنالك أية قيمة لما كنت أقوم به تبرر الاستمرار فيه؟ ولكن الأمر لم يكن كذلك تمامًا.

لقد لاحقني خوف مضحك، والحق أن المرء لا يستطيع أن يموت بدون أن يكون قد اعترف بكل أكاذيبه. ليس لله أو لأحد من ممثليه. لقد كنت فوق ذلك، كما يمكنك أن تتصور جيدًا. كلا، كان ذلك اعترافًا للبشر، لصديق، لامرأة أحبها، مثلًا. وإلا فإذا كانت هنالك أكذوبة واحدة خفية في حياة الإنسان فإن الموت يدفنها.

لن يعرف أحد مرة أخرى حقيقة هذه المسألة، ما دام الشخص الوحيد الذي يعرف ذلك هو الميت الذي نام مع سره. وكان هذا القتل المطلق للحقيقة يصيبني بالغيبوبة. واليوم، ودعني أبدي دهشتي من ذلك، صار هذا يبهجني بهجة شديدة. هنالك مثلًا الفكرة التي تشير إلى أنني الوحيد الذي يعرف ما يبحث عنه الجميع، وأنني أملك شيئًا

ظل البوليس عبر ثلاثة قرون يبحث عنه، وهذه الفكرة منحتني غبطة تامة. ولكن دعنا لا نستمر في بحث ذلك. فلم أكن قد وجدت الوصفة في ذلك الحين، وكنت شديد القلق.

ولكنني جمعت أطراف شجاعتي بالطبع. فماذا كانت أكذوبة رجل واحد ساهم في تاريخ الأجيال؟ وأي ادعاء يكمن في الرغبة في إخراج أكذوبة لا قيمة لها، مغمورة في بحر الدهور كذرة الرمل في المحيط، إلى نور الحقيقة! قلت لنفسي أيضًا أن موت الجسد طبقًا لما رأيته في أولئك الذين ماتوا، كان بحد ذاته عقابًا كافيًا يمحو كل شيء. كما أنه يتم كسب الخلاص (أي الحق في الاختفاء تمامًا) في متعة عذاب الموت.

وبرغم ذلك ازدادت تعاستي، وكان الموت أمينًا في الهيمنة على فراشي، وكنت أستيقظ معه كل صباح. وأصبحت المدائح غير محتملة بالنسبة لي، أكثر فأكثر. ولاح لي أن الزيف أزداد معها بحيث لم يعد في وسعي أن أقوم نفسي ثانية.

وحل يوم لم أعد فيه أحتمل ذلك، وكان رد فعلي الأول متطرفًا، فما دمت كذابًا لا بد لي من أن أكشف عن ذلك وأواجه بازدواجيتي كل أولئك المعتوهين حتى قبل أن يكتشفوا ذلك. وسأكشف عن حقيقتي، متقبلًا التحدي. ولكي أقضي على الضحك، كنت أحلم بإلقاء نفسي في الهزء العام. باختصار، كانت المسألة ما تزال تتعلق بالتملص من الحكم. لقد أردت أن أضع أولئك الضاحكين إلى جانبي. أو أن أضع نفسي إلى جانبهم على الأقل. وفكرت، مثلًا، بمزاحمة العميان في الطريق، ومن الغبطة الخفية اللا متوقعة التي كان هذا يمنحني إياها، أدركت كم كان كبيرًا ذلك الجانب من روحي الذي كان يحتقرهم. وصممت على أن أثقب إطارات سيارات العاجزين، وأصرخ «البروليتاريون القذرون» تحت الهياكل الخشبية التي يعمل عليها العمال، وأصفع الأطفال في النفق. وكنت أحلم بكل ذلك ولكنني لم أفعل شيئا منه، أو أنني حتى إذا كنت قد فعلت شيئًا منه فقد نسيته.

وعلى أية حال، فإن كلمة «العدالة» نفسها كانت تصيبني بنوبات غريبة من

الغضب. ومضيت بالضرورة في استخدامها في خطبي القضائية، ولكنني انتقمت بالنيل علنًا من الروحية الإنسانية وأعلنت عن بيان يفضح الاضطهاد الذي يفرضه المضطهدون أنفسهم على الناس المحترمين. وفي يوم من الأيام، بينما كنت أتناول طعامًا مؤلفًا من أبو جلمبو في مطعم جانبي على الطريق، وكان هنالك شحاذ يضايقني، طلبت من صاحب المطعم أن يطرده. واتفقت علنًا مع عبارة ذلك القاضي: «أنت تربك الناس. ضع نفسك فقط في مكان هؤلاء السادة والسيدات!»

وأخيرًا، كنت أعبر لكل من كان يصغي عن أسفي لأنه لم يعد في الوسع التصرف كما فعل إقطاعي روسي كنت معجبًا بشخصيته. فقد كان يأمر بضرب الفلاحين الذين ينحنون له والذين لا ينحنون له لكي يعاقب الجسارة التي كان يعتبرها جريمة في الحالتين.

ومهما يكن الأمر، فإنني أتذكر تطرفًا أشد. لقد بدأت أكتب «أغنية إلى البوليس» و«تأليه المقصلة». وعلاوة على ذلك، كنت أضطر نفسي إلى زيارة المقاهي الخاصة بصورة مستمرة، حيث يجتمع مفكرونا الأحرار الإنسانيون الذين يمتهنون الإنسانية. وكان سجلي الحافل الممتاز في الماضي يتيح لي الترحيب. وهنالك، وبدون أن يلوح علي ذلك، كنت أطلق تعبيرًا ممنوعًا: «شكرًا لله..» أو ببساطة أشد: «إلهي..» وأنت تعرف أي أطفال خجولين صغار هم ملحدو مقاهينا. وكانت تتبع ذلك التعبير الجسور لحظة دهشة، ثم ينفجر السخط، فيغادر البعض المقهى، ويثرثر الآخرون باستياء دون أن يصغوا لأي شيء. بينما يرتجف الجميع كالشياطين في الماء المقدس.

قد تعتبر ذلك طفوليًا. إلا أنه قد يكون هنالك سبب جدي لتلك النكات الصغيرة. لقد أردت أن أقلب اللعبة رأسًا على عقب، وفوق ذلك أردت أن أدمر تلك الشهرة التي كانت تحيطني بالإعجاب والتي كان مجرد التفكير فيها يصيبني بأشد نوبات الغضب. وقد يقول الناس بعذوبة: «رجل مثلك...» ويهرب الدم من وجهي. فلم أكن أريد احترامهم لأنه لم يكن عامًا، وكيف يكون عامًا إذا لم أكن أنا لأقاسمهم إياه؟ ولهذا فقد

كان من الأفضل أن أغطي على كل شيء، الحكم والاحترام، بغطاء من السخرية. كان علي أن أحرر بأي ثمن الشعور الذي كان يخنقني. ولكي أكشف لكل الأعين حقيقة الكيان الشمعي الجميل الذي كنت أعرضه في كل مكان، كان علي أن أحطمه وأخرج ما بداخله.

أذكر مثلًا محاضرة غير رسمية كان علي أن ألقيها على جماعة من المحامين الشبان الناشئين. وبعد أن ضايقني المديح الخيالي الذي أحاطني به رئيس النقابة الذي قدمني، لم أستطع المقاومة طويلًا. وكنت قد بدأت بالحماسة والاندفاع المعهودين بي، ولم يكن ذلك صعبًا علي، ولكنني رحت فجأة أشيد بالمشاركة كنظام للدفاع. وقلت أن ذلك لم يكن لأن المشاركة التي أوصلها إلى الكمال التحقيق الحديث الذي يحكم في وقت واحد على اللص والشريف ليسحق الثاني بجرائم الأول. بالعكس، فقد كنت أدافع عن اللص بفضح جرائم الشريف، أي المحامي في هذا المثال. وقد أوضحت الأمر بعناية..

«لنفترض أنني قبلت الدفاع عن مواطن يثير العطف، قاتل بسبب الغيرة. كنت سأقول: أيها السادة المحلفون، فكروا في الغضب الذي لا غبار عليه حين يرى المرء طبيعته الخيرة موضع الاختبار أمام لؤم الجنس اللطيف. بالعكس، أليس أخطر أن أكون بالصدفة في جانب النقابة، على منصتي، دون أن أكون طيبًا في حياتي، ودون أن أكون قد قاسيت من الخداع؟ أنا حر، في حمى من روادعكم، ومع ذلك فمن أنا؟ لويس الرابع عشر في الكبرياء، وعنز في الشهوة، وفرعون في الغضب، وملك في الكسل. لم أقتل أحدًا؟ لم أفعل ذلك بعد، حقًا! ولكن، ألم أجعل المخلوقات التي تستحق القتل تموت؟ ربما. وربما أكون مستعدًا لفعل ذلك ثانية، بينما أن هذا الرجل – انظروا إليه فقط – لن يفعل ذلك ثانية. إنه لا يزال مندهشًا لأنه فعل ما فعل»

ولكن هذا الخطاب أقلق زملائي. وبعد لحظة قر رأيهم على السخرية منه. وأصبحوا في أتم اليقين حين وصلت إلى استنتاجاتي التي تشبثت فيها بالفرد الإنساني

وحقوقه المفترضة، وهكذا فازت العادة في ذلك اليوم.

وبتكرار هذه الأمور اللطيفة الخارجة عن نطاق الحصافة، نجحت فقط في بث القلق في الرأي نوعًا ما، ولكنني لم أنجح في إضعاف نفسي. بيد أن الدهشة التي كنت أجابه بها بصورة عامة بين المستمعين، وربكتهم الصامتة، كهذه التي تلوح عليك – كلا، لا تحتج – لم تقنعاني مطلقًا. أنت ترى أنه لا يكفي اتهامك لنفسك لتبرئة ضميرك، وإلا فإنني سأكون الآن في براءة الحمل. إذ يجب على المرء أن يتهم نفسه بطريقة معينة، لم أبلغها إلا بعد وقت طويل. ولم أكتشفها إلا حين بلغت حالة من النبذ التام. وحتى ذلك الحين، استمر الضحك في طريقي، دون أن تفلح جهودي العرضية في تجريده من ميزته الحنون الرقيقة التي كانت تؤلمني.

ولكن البحر هائج كما يلوح لي. ولن يمر وقت طويل قبل أن يبحر قاربنا. والنهار موشك على الانتهاء. انظر. إن الحمائم تتجمع هناك في الأعالي، إنها تزاحم بعضها، ولا تتحرك إلا قليلًا. بينما يخفت النور. ألا تعتقد أننا يجب أن نصمت لنستمتع بهذه اللحظة الآثمة نوعًا ما؟ كلا؟ أنت مستمتع بحديثي؟ أنت جم الأدب. ثم أنني أجازف الآن بإمتاعك حقًا. وقبل أن أوضح ما أريد إيضاحه بشأن مسألة القضاة التائبين، علي أن أحدثك عن الفساد الخلقي، والراحة الصغيرة.

الفسق كبديل عن الحب

أنت مخطئ يا عزيزي، فإن الزورق منطلق بكل سرعته. ولكن الزويدرزي هو بحر ميت، أو أنه كذلك تقريبًا. فبسواحله المسطحة الغارقة في الضباب لا يمكن لأحد أن يقول أين هي بداياته أو نهاياته. وهكذا فنحن مبحرون فيه دون أن تكون هنالك أية علامات، وبهذا ألا يمكننا قياس السرعة. نحن نتقدم، دون أن يتغير شيء. إنه ليس إبحارًا، وإنما هو حلم.

توفر لي شعور معاكس في أرخبيل اليونان، فقد كانت تظهر دائمًا جزر جديدة في الأفق، وكانت نهاياتها الخالية من الأشجار تضع حدودًا للسماء، بينما كانت سواحلها الصخرية تتعارض بحدة مع البحر. ولم يكن النظر ليرتبك، ففي ذلك النور الشامل كان كل شيء علامة مميزة. ومن جزيرة إلى أخرى، بلا انقطاع في قاربنا الصغير الذي كان مع ذلك يسير ببطء، كنت أشعر وكأننا كنا ننطلق كالريح، ليلًا ونهارًا، على عرف الأمواج القصيرة الباردة في سباق حافل بتألق قطرات الماء والضحك.

ومنذ ذلك الحين كانت اليونان نفسها تنطلق على غير هدى في مكان ما من نفسي، على حافة ذاكرتي، دون كلل.. أوقفني، فأنا نفسي أنطلق انطلاقًا سائبًا الآن، وأصبح غنائيًا! أوقفني يا عزيزي، أرجوك.

على فكرة.. أتعرف اليونان؟ كلا؟ هذا أفضل. أسألك، ماذا ستفعل هناك؟ هناك يكون على المرء أن ينقي قلبه. أتعرف أن الأصدقاء الذكور في اليونان يسيرون في الشوارع أزواجًا متشابكي الأيدي؟ أجل، إن النساء يبقين في البيوت، وغالبًا ما ترى رجلًا كهلًا محترمًا ذا شاربين رياضيين وهو يسير بوقار على الرصيف عاقدًا

أصابعه بأصابع صديقه. في الشرق أيضًا في بعض الأحيان؟ حسنًا. ولكن أخبرني، هل ستأخذ يدي في شوارع باريس؟ آه، إنني أمزح. نحن نمتاز بشيء من المجاملة الاجتماعية، وتجعلنا النفايات نلوح مزوقين. وقبل أن نظهر في الجزر اليونانية، علينا أن نغتسل؛ فهنالك يصفو الهواء ويكون طاهرًا، والمتعة الحسية شفافة كالبحر، ونحن...

دعنا نجلس على مقاعد القارب. أي ضباب! أظن أنني قاطعت نفسي في طريقي إلى الراحة الصغيرة. أجل سأخبرك بما أعني. فبعد أن كافحت، وبعد أن استنفدت كل فخفختي الوقحة، ويئست من لا جدوى جهودي، قر رأيي على ترك مجتمع الرجال. كلا، كلا، لم أبحث عن جزيرة نائية مجهولة، فليس هنالك الآن مثل هذه الجزر. لقد التجأت إلى مجتمع النساء فقط. وكما تعرف، فإنهن لا يتحدثن بالسوء ضد أي ضعف، وإنما هن بالعكس يملن إلى إخضاعنا أو تجريدنا من القوة. ولهذا فإن المرأة ليست جائزة المحارب وإنما هي جائزة المجرم. إنها ميناؤه، وملجؤه، وغالبًا ما يتم القبض عليه في فراش امرأة. أليست هي كل ما يتبقى لنا من الفردوس الدنيوي؟

وقد هرعت إلى ملجأي الطبيعي في ظروف بؤسي. ولكنني لم أستمر في إلقاء خطبي الجميلة. كنت مازلت أقامر قليلًا، بسبب العادة، ولكن ذلك لم يكن ليحتوي على أي جديد كما كان من قبل. وأنا أتردد في الإقرار بذلك لئلا أستخدم بضع كلمات شريرة: فقد لاح لي أنني كنت في ذلك الحين في حاجة إلى الحب. فاضح، أليس كذلك؟ على أي حال، لقد جربت عذابًا خفيًا، نوعًا من الحرمان جعلني أشد خواءً وسمح لي، أولًا بالضرورة، وثانيًا بسبب الفضول، بأن أقوم ببعض الالتزامات. فبقدر حاجتي إلى أن أحب وأكون محبوبًا، كنت أعتقد أنني كنت مغرمًا. بعبارة أخرى، كنت ألعب دور الأحمق.

كنت أكتشف نفسي في أغلب الأحيان، وأنا أسأل سؤالًا كنت أتجنبه في الماضي باعتباري رجلًا مجربًا. كنت أسمع نفسي متسائلًا: «أتحبينني؟» وأنت تعرف أن العادة قد جرت في مثل هذه الأحوال على أن تجيب قائلة: «وأنت؟» فإذا قلت: «أجل،» فإنني سألزم نفسي بما هو أكثر من مشاعري الحقيقية. وإذا جرؤت على قول: «لا» فإنني كنت سأجازف بحرماني من أن أكون محبوبًا، وكنت لذلك سأتعذب، فكلما ازداد التهديد الذي كان يحيط بالشعور الذي كنت آمل أن أجد فيه الراحة، زاد طلبي لذلك الشعور من شريكتي.

وهكذا قادني ذلك إلى وعود أشد وضوحًا، وصرت أتوقع من قلبي شعورًا أشد اجتياحًا. وأدى بي هذا إلى نوع من العاطفة الكاذبة لامرأة فاتنة حمقاء كانت قد قرأت الكثير جدًا من قصص «الحب الحقيقي» بحيث أنها كانت تتحدث عن الحب باليقين والاعتقاد اللذين يعلن بهما المثقف عن المجتمع الذي يخلو من الطبقات. ومثل هذا الاعتقاد، كما لا بد أنك تعرف يصيب الآخرين بالعدوى. لقد جربت أن أتحدث كذلك عن الحب، وبذلك أقنعت نفسي. على الأقل حتى أصبحت الفتاة عشيقتي وأدركت أن قصص «الحب الحقيقي» رغم كونها تعلم الناس كيف يتحدثون عن الحب، لم تعلمهم كيف يحبون بعضهم بعضًا. فبعد أن كنت قد أحببت ببغاء، كان علي أن أذهب إلى الفراش مع أفعى. وهكذا فتشت في مكان آخر عن الحب الذي تعد به الكتب، والذي لم أجده في حياتي مطلقًا.

ولكن كانت تنقصني الممارسة. لقد كنت خلال أكثر من ثلاثين سنة أحب نفسي. فأي أمل كان لي في ترك تلك العادة؟ ولم أفقدها، وإنما بقيت ذلك العابث في العاطفة. وضاعفت الوعود، وتعاقدت على علاقات غرامية متعددة في آن واحد، كما كانت لدي في فترة سابقة عدة علاقات جنسية في وقت واحد. وبهذه الطريقة كنت أسبب مصائر مؤلمة للآخرين أكثر مما كنت أفعل في فترة لا اكتراثي البديع. هل

أخبرك بأن ببغائي أصابها اليأس وأرادت أن تموت جوعًا؟ ولكنني لحسن الحظ وصلت في الوقت المناسب ووافقت على الإمساك بيدها حتى قابلت المهندس ذا الفودين الأشيبين حين عاد من رحلته إلى بالي، بعد أن كانت قد وصفته لها صحيفتها الأسبوعية المفضلة. وعلى أي حال، وبدلًا من أن أجد نفسي متحولًا، مبرءًا في دوامة عواصف العاطفة – كما يقول المثل – كنت أضيف المزيد إلى عبء جرائمي وانحرافي عن الفضيلة.

وبالنتيجة، صرت أشمئز من الحب إلى درجة أنه لم يكن في وسعي لسنوات أن أسمع «الحياة الوردية» أو «أغنية الحب» دون أن أصر على أسناني. وحاولت بعد ذلك أن أتخلى عن النساء، بطريقة ما، وأعيش في حالة من الطهر. وقلت لنفسي أن صداقتهن تكفيني. ولكن هذا كان يشبه التخلي عن المقامرة. فبدون الاشتهاء كانت النساء يضجرنني إلى حد لم اكن أتوقعه، وكنت أنا أيضًا أضجرهن. لا مزيد من المقامرة أو الذهاب إلى المسرح – لا بد أنني كنت في دنيا الحقيقة.

ولكن الحقيقة، يا صديقي العزيز، هي سأم منقطع النظير.

وحين يئست من الحب والطهر، فكرت أخيرًا في الفسق، كبديل عن الحب. فهو يكبت الضحك ويعيد الصمت ويسبغ الخلود بعد كل هذا. ففي درجة معينة من السكر اللطيف، حين أكون مضطجعًا في وقت متأخر من الليل بين بغيين، مستنفد الشهوة، لا يكون الأمل عذابًا، كما ترى، وإنما يتحكم الذهن في الماضي كله، وينتهي عذاب العيش. بل إنني عشت في الفسق دائمًا، دون أن أكف عن الرغبة في أن أكون خالدًا.

ألم يكن هذا مفتاح طبيعتي وكذلك نتيجة حبي العظيم لنفسي الذي أخبرتك عنه؟ أجل، لقد كنت أتفجر بالحنين إلى أن أكون خالدًا. لقد كنت أحب نفسي بحيث أنه لم يكن في وسعي أن أتخلى عن الرغبة في ألا يختفي هذا الشيء الذي كنت أحبه

أبدًا.

والمرء حين يكون صاحيًا مزودًا بالقليل من المعرفة الذاتية غير قادر على العثور على سبب واحد لإسباغ الخلود على هذا القرد الشهواني، عليه أن يبحث عن بديل لذلك الخلود. ولأنني كنت أحن إلى الحياة الأبدية، كنت أذهب إلى الفراش مع البغايا وأشرب الخمر ليالي بكاملها. وفي الصباح، كان فمي يمتلئ حقًا بالمذاق المر الذي تتصف به حالة الفناء. ولكنني كنت قد حلقت ساعات طويلة في دنيا السعادة. هل أجرؤ على الإقرار لك بذلك؟ لا أزال أذكر بتلهف ليالي معينة كنت أذهب فيها إلى ناد ليلي عادي لأقابل إمرأة تمتهن مراقصة الآخرين، كانت تسبغ علي نعمها، وكنت قد دافعت عن سمعتها في صراع مع رجل ملتح متعنت.

وكنت أتعلق بالبار في كل ليلة، في النور الأحمر والغبار اللذين يتصف بهما ذلك الفردوس الأرضي، وأكذب بصورة مغرقة في الخيال وأشرب وأشرب. وكنت أنتظر الفجر وينتهي بي الأمر في فراش أميرتي غير المرتب دائمًا، وكانت تغرق في الجنس بصورة ميكانيكية، ثم تنام مباشرة. ويأتي النهار بنعومة ليغدق النور على هذه الكارثة فأنهض وأقف بلا حراك في فجر من المجد. أقر بأن الخمر والنساء أتاحا لي التعزية الوحيدة التي كنت أستحقها.

سأطلعك على هذا السر يا صديقي العزيز، ولا تخش أن تستفيد منه. وسترى أن الفسق الحقيقي هو تحرير لأنه لا يأتي بأية التزامات. فأنت تمتلك نفسك فقط، وهكذا فإنه تظل المتعة المفضلة عند أولئك الذين يحبون أنفسهم أشد الحب. إنه غابة لا ماضي فيها ولا حاضر، ولا وعود أبدًا، ولا عقوبة مباشرة على الإطلاق. والأماكن التي يمارس فيها الفسق معزولة عن العالم. وحين يدخلها المرء يترك خلفه الخوف والأمل. وليس الحديث ضروريًا فيها، إذ يستطيع المرء أن يحصل على ما يريده هنالك بدون أي حديث، وغالبًا ما يكون ذلك بدون نقود أيضًا. آه، أرجوك، لا بد أن أشيد

بالنساء المجهولات المنسيات اللواتي ساعدنني في ذلك الحين! وحتى اليوم، فإن ذكراي لهن تستمر فيما يشبه الاحترام.

على أية حال، كنت قد استفدت فائدة تامة من ذلك التحرير، بل لقد شوهدت في فندق مكرس لما يسمونه الخطيئة، حيث عشت مع بغي ناضجة وفتاة غير متزوجة من أفضل الطبقات. وكنت ألعب دور الفارس مع الأولى، بينما كنت أعطي الثانية فرصة لتتعلم حقائق الواقع. ولسوء الحظ، كانت البغي تتميز بطبائع الطبقة المتوسطة، ووافقت على كتابة مذكراتها لمجلة تنشر الاعترافات وتفتح صدرها للآراء الحديثة، وتزوجت الفتاة لتشبع غرائزها الجامحة وتستفيد من مزاياها الرائعة. ولست أفخر أيضًا بكوني قد قبلت في ذلك الحين في جماعة من الذكور كانت دائمًا موضع التسميات السيئة. ولكنني لن أصر على ذلك: أنت تعرف أن الأذكياء أنفسهم يفخرون باستطاعتهم شرب قنينة كاملة أكثر من الجالس إلى جانبهم. وكنت سأجد الراحة والانطلاق في ذلك الانحلال الخلقي، إلا أنني جابهت هنالك أيضًا عقبة في نفسي. كبدي، هذه المرة، وتعب هائل لم يغادرني حتى الآن. إن المرء ليلعب دور الخالد، وبعد بضعة أسابيع تجده لا يعرف حتى ولا كونه سيبقى حيًا حتى اليوم التالي أم لا.

كانت الفائدة الوحيدة في تلك التجربة، حين تخليت عن متعي الليلية، هي أن الحياة صارت أقل ألمًا بالنسبة لي. وكان التعب الذي كان ينخر في جسمي قد ترك علاماته فيه، فكل إفراط يقلل من الحيوية وهكذا ينجم من ذلك العذاب. وليس هناك أي انفعال محمول في الفسق، بعكس ما يتصوره الآخرون. فهو ليس غير نوم طويل. ولا بد أنك لاحظت أن أولئك الذين يقاسون من الغيرة حقًا لا يملكون رغبة ملحة أشد من رغبتهم في النوم مع المرأة التي يعتقدون أنها قد خانتهم. إنهم يريدون بالطبع أن يؤكدوا لأنفسهم مرة أخرى أن كنزهم الغالي لا يزال يخصهم. إنهم يريدون

أن يمتلكوه، كما يقول المثل. ولكنهم يصبحون أقل غيرة بعد ذلك، والغيرة الجسدية هي نتيجة تصور المرء في الوقت نفسه أنها حكم ذاتي، فيسبغ على المنافس الأفكار القذرة التي تكون له هو نفسه في الظروف المشابهة.

ولحسن الحظ، فإن الإفراط في الإشباع الحسي يضعف الخيال والحكم معًا. ويغفو العذاب بعد ذلك طيلة غفوة الحيوية. ولهذا السبب يفقد المراهقون قلقهم الميتافيزيقي مع العشيقة الأولى. وقد صارت بعض الزيجات، التي هي فسق رسمي وحسب، الأكفان الرتيبة للجرأة والتجديد. أجل، صديقي العزيز، لقد وضع البورجوازي بلادنا في نعلين وسيقودها سريعًا نحو بوابات الموت.

أنا أبالغ! كلا، ولكني أشذ عن الموضوع. كنت أريد فقط أن أخبرك بالفائدة التي حصلت عليها من أشهر التحلل الخلقي. لقد عشت فيها فيما يشبه الضباب الذي صار فيه الضحك خافتًا بحيث لم أعد ألاحظه. ولم يعد اللا اكتراث الذي كان يسيطر علي يواجه أي مقاومة، فوسع حدقته. لا مزيد من العاطفة! مزاج معتدل، أو لا مزاج على الإطلاق. إن الرئات المسلولة تشفى بالجفاف وتخنق صاحبها السعيد تدريجيًا. وكذلك كان الأمر معي حين مت بسلام بسبب علاجي. وكنت ما أزال أعيش من عملي، رغم أن سمعتي كانت قد تضررت إلى حد بعيد بسبب شطحات لغتي وممارستي المنتظمة لمهنتي التي نالت منها فوضى حياتي. ومن الجدير بالملاحظة، على كل حال، إنني كنت أثير بإفراطي الليلي استياءً أقل من ذلك الذي كانت تثيره استفزازاتي الكلامية. وكانت الإشارة التي كنت غالبًا ما أوجهها لغويًا فقط إلى الله أمام المحكمة قد أيقظت شكوك زبائني، وربما كانوا يخشون أن السماء لا تستطيع أن تمثل مصالحهم كما يفعل المحامي البارع الذي لا يقهر بقدر ما يخص الأمر شرائع القانون. وهكذا فلم يكن الأمر يتطلب إلا خطوة واحدة للانتهاء إلى أنني كنت ألجأ إلى الله بنسبة جهلي. واتخذ زبائني تلك الخطوة فقل عددهم. وكنت ما أزال بين حين وآخر

أناقش قضية ما، وكنت في بعض الأحيان محاميًا ممتازًا، حين كنت أنسى أنني لم أعد أؤمن بما كنت أقول. وكان صوتي يقودني فأتبعه، وبدون أن أحلق حقًا، كما كنت أفعل في الماضي، كنت أرتفع عن الأرض على الأقل وأقفز بعض القفزات.

أما خارج مهنتي، فلم أكن لأرى غير القلائل، ولم أبق إلا على علاقة أو علاقتين مع نساء ضجرات، وكان الاحتفاظ بهن يسبب لي ألمًا شديدًا. بل لقد كان يحدث أن أنفق أمسيات ودية نقية، خالية من عنصر الشهوة، ومع ذلك فقد كان هناك اختلاف هو أنني لشدة سأمي، لم أكن أصغي إلا قليلًا لما كان يقال. وصرت أشد بدانة قليلًا، وصار في وسعي أن أعتقد في النهاية أن الأزمة قد انتهت، ولم يبق علي إلا أن أتقدم في العمر.

وفي أحد الأيام، على أية حال، أثناء سفرة كنت أقوم بها مع صديقة رغم أنني لم أخبرها بأنني كنت أحتفل بشفائي، كنت على ظهر باخرة من بواخر المحيط – على السطح الأعلى بالطبع– وفجأة، وبعيدًا في عرض البحر لمحت بقعة سوداء على المحيط الرمادي الملفع بلون الفولاذ، واستدرت في الحال، وبدأ قلبي يخفق بعنف. وحين اضطررت نفسي إلى النظر ثانية، كانت البقعة السوداء قد اختفت. وكنت على وشك أن أصيح، وأطلب النجدة بكل حماقة، حين رأيتها ثانية، وكانت قطعة من النفايات التي تخلفها السفن وراءها. ومع ذلك، فلم يكن في وسعي أن أحتمل النظر إليها، لأنني فكرت في الحال في شخص يغرق، ثم أدركت، بهدوء كما يحدث حين تستسلم لفكرة كنت تعرف حقيقتها منذ زمن طويل، إن الصراخ الذي تعالى على السين خلفي منذ سنوات لم ينقطع مطلقًا، وإنما لا يزال يحمله النهر بعيدًا إلى مياه القنال، ليسافر في العالم، عبر امتداد المحيط الشاسع، وأدركت أيضًا أنه قد انتظرني هنالك حتى اليوم الذي واجهته فيه وعرفت كذلك أنه سيستمر في انتظاري في البحار والأنهار. باختصار، في كل مكان، حيث يكمن ماء تعميدي المر. هنا أيضًا، على فكرة، ألسنا

لا نزال على الماء؟ على هذا الماء المسطح الرتيب الذي لا ينتهي والذي لا تتضح حدوده من حدود الأرض؟ وهل تصدق أننا سنصل أمستردام حقًّا؟ لن نخرج من هذه الجبهة المائية المقدسة أبدًا.

أصغ، ألا تسمع صراخ الطيور المائية اللا مرئية؟ إذا كانت تصرخ في اتجاهنا، فإلى أي اتجاه تدعونا؟ ولكنها الطيور المائية نفسها التي كانت تصرخ، والتي كانت تنادي على الأطلسي في اليوم الذي أدركت فيه بوضوح أنني لم أشف، وأنني مازلت محاصرًا، وأنني يجب أن أحاول. انتهت الحياة الساطعة، ولكن انتهت أيضًا حمى الاندفاع وتقلصات الألم. كان علي أن أستسلم وأقر بجرمي. وكان علي أن أعيش في الراحة الصغيرة. أنت لا تعرف ما هي تلك الزنزانة التي كانوا يسمونها في القرون الوسطى «الراحة الصغيرة» كان المرء يعيش منسيًا في تلك الزنزانة طيلة حياته. وكانت تتميز عن غيرها من الزنزانات بأبعادها البارعة، فلم تكن عالية بما يكفي للوقوف فيها، ولا تتسع للاضطجاع.

وكان على المرء أن يتخذ وضعية شاذة ليعيش بين الزاويتين الرأسيتين، وكان نومه تكومًا، ويقظته تربعًا. كانت هنالك براعة يا عزيزي – وأنا أزن كلماتي – في ذلك الاقتراح البسيط. وفي كل يوم أثناء ذلك التقييد اللا متغير الذي يصلب جسد المحكوم، كان يعرف أنه مذنب، وأن البراءة تتألف من مد الجسم بغبطة. أتستطيع أن تتصور في تلك الزنزانة رجلًا اعتاد على القمم والسطوح العالية؟ ماذا؟ يمكن أن يعيش المرء في تلك الزنزانات وهو ما يزال بريئًا؟ غير محتمل! غير محتمل أبدًا! وإلا فإن استنتاجاتي ستنهار.

إنني أرفض أن أقر بمثل هذه الفرضية لحظة واحدة – إن البراءة يمكن أن تقلص إلى حد العيش كالأحدب. وأكثر من ذلك فإننا لا نستطيع أن نعلن براءة أحد على الإطلاق، في حين أننا نستطيع أن نبين بالتأكيد أن الجميع مذنبون. إن كل شخص

يشهد على جرائم الآخرين جميعهم – هذا هو إيماني وأملي.

صدقني أن الأديان هي على خطأ في اللحظة التي تبشر فيها بالأخلاق وتأمر فيها بالوصايا. وليست هنالك حاجة إلى الله لإيجاد الذنوب أو للعقاب، ويكفي زملاؤنا البشر، نساعدهم نحن في ذلك. لقد كنت تتحدث عن يوم الحساب الأخير. اسمح لي بأن أضحك باحترام، وسأنتظر ذلك بعزم، لأنني عرفت ما هو أسوأ منه، حساب البشر. فهم لا يعترفون بظروف مخففة، بل أن النية الحسنة نفسها تعزى إلى الجريمة هل سمعت على الأقل بزنزانة البصاق التي فكر بها شعب من الشعوب مؤخرًا ليثبت أنه أعظم الشعوب؟ صندوق محاط بالجدران يستطيع المرء أن يقف فيه فقط دون أن يتحرك، والباب الصامد الذي يسجنه في صدفته الأسمنتية يقف عند مستوى ذقنه، فلا يمكن أن يرى أحد غير وجهه وكل سجان يمر بقربه يبصق فيه بكل قوته. والسجين المحصور في زنزانته لا يستطيع أن يمسح البصاق عن وجهه، رغم أنهم يسمحون له، حقًا، بأن يغمض عينيه. حسنًا، هذا هو يا عزيزي اختراع إنساني. ولم يشعروا بالحاجة إلى الله ليصلوا إلى ذلك العمل الرائع الصغير.

ماذا في ذلك؟ حسنًا، إن جدوى الله الوحيدة هي أن يمنح البراءة، وأنا أميل إلى أن أري ألدي مغامرة تنظيفية هائلة – كما كان مرة، ولكن لفترة قصيرة جدًا، أمدها ثلاث سنوات، ولم يكن يسمى دينًا آنذاك. ومنذ ذلك الحين، لم يعد هنالك صابون، وصارت وجوهنا قذرة، ونحن نمسح أنوف بعضنا البعض. ولما كان الكل أغبياء، والكل معاقبين، دعنا نبصق في وجوه بعضنا البعض و – هيا! إلى الراحة الصغيرة، وكل واحد يحاول أن يبصق أولًا، وهذا هو كل ما في الأمر. سأخبرك بسر كبير، صديقي العزيز، لا تنتظر يوم الحساب الأخير، أنه يحدث في كل يوم.

كلا، لا شيء. إنني أرتجف قليلًا فقط في هذه الرطوبة اللعينة، ونحن نهبط إلى اليابسة على أي حال. ها نحن بعدك. ولكن ابق قليلًا، أرجوك، وسر معي إلى البيت.

لم أنته بعد، ويجب أن أستمر. الاستمرار هو الأمر الصعب، أخبرني، أتعرف لماذا صلبوه – ذلك الذي قد تفكر فيه الآن؟ حسنًا، كانت هنالك أسباب كثيرة في ذلك الحين. هنالك دائمًا أسباب لقتل إنسان، وبعكس ذلك، فمن المستحيل تبرير استمراره في الحياة. ولهذا السبب فإن الجريمة تجد المحامين دائمًا بينما لا تجدهم البراءة إلا نادرًا.

ولكن، إلى جانب الأسباب التي تم شرحها لنا جيدًا خلال الألفي سنة الماضية، كان هنالك سبب رئيسي لذلك العذاب الهائل، ولست أعرف لماذا تم إخفاؤه بمثل هذه العناية. السبب الحقيقي هو أنه عرف أنه لم يكن بريئًا تمامًا. فإذا لم يحتمل عبء الجريمة التي كان متهمًا بها، فإنه كان سيتهم آخرين – رغم أنه لم يكن يعرف من سيتهم، ألم يعرفهم حقًا؟ لقد كان في المصدر، بعد كل ذلك، فلا بد أنه كان قد سمع بمذبحة معينة للأبرياء. أطفال ذبحوا بينما كان أقرباؤه يأخذونه إلى مكان آمن – لماذا ماتوا إذا لم يكن ذلك بسببه؟ هؤلاء الجنود الملطخون بالدماء، والأطفال المشطورون إلى نصفين، ملأوه بالرعب. ولكن رجلًا مثله لم يكن لينساهم، أما بالنسبة لذلك الأمر الذي يمكننا أن نحس في كل أفعاله، ألم يكن حنينًا لا علاج له في نفس رجل كان يسمع ليلة بعد ليلة صوت المرأة وهي تبكي أطفالها وترفض كل تعزية؟كان العويل سيشق قلب الليل، والمرأة تدعو أطفالها الذين قتلوا لأجله، بينما هو لا يزال حيًا!

فحين يعرف المرء ما عرفه هو، ويكون مطلعًا على كل شيء عن الإنسان، آه، من كان سيصدق أن الجريمة تتألف من جعل الآخرين يموتون أقل من كونها تتألف من ألا يموت الإنسان نفسه! – وبمواجهته لجريمته البريئة ليل نهار، صعب عليها البقاء والاستمرار. كان أفضل له أن ينتهي من الأمر وألا يدافع عن نفسه، وأن يموت، لكي لا يكون الوحيد الذي يعيش، وليذهب إلى مكان آخر يتمسكون فيه به. ولكنه تذمر

من عدم تمسكهم به، وكان ذلك آخر ما يمكن أن يحتمل منه، فحذف تذمره ولم يذكره أحد. أجل إنه التلميذ الثالث من تلاميذه الذي كتم شكواه أولًا، وكانت تلك صرخة عصيان، أليست كذلك؟ حسنًا، تحذف إذن. لاحظ أيضًا أنه إذا لم يكتم لوقا شيئًا، ما كان أحد ليلاحظ ذلك. وعلى أي حال، فما كانت ستصبح للأمر كل تلك الأهمية، وهكذا فإن الرقيب ينادي علنًا بما يمنعه هو نفسه، ونظام العالم هو في غموض ذلك.

ومع ذلك، فإن الذي خضع لحذف الرقابة لم يستطع الاستمرار، وأنا أتحدث الآن عن هذا يا عزيزي، لقد كان هنالك زمن لم تكن لدي فيه أية فكرة في أية لحظة عن كيفية بلوغي اللحظة التالية. أجل، يستطيع المرء أن يشن الحرب في هذا العالم، ويحب حب القرد، ويعذب زميله الإنسان، أو يتحدث بالسوء فقط عن جاره، بينما هو يشغل يديه بالحياكة.

ولكن، في حالات معينة، يكون الاستمرار، الاستمرار فقط، فوق طاقة البشر. ولم يكن هو فوق طاقة البشر. يمكنك أن تثق بكلمتي. لقد صرخ عاليًا في عذابه ولهذا فأنا أحبه، صديقي الذي مات دون أن يعرف.

ويكمن سوء الحظ في أنه تركنا وحيدين، لنستمر مهما حدث، حتى حيث نكون حبيسي الراحة الصغيرة، ونحن نعرف بدورنا ما كان يعرفه، ولكننا غير قادرين على فعل ما فعله، ولا على الموت مثله. وقد حاول البشر بطبيعتهم أن يحصلوا على بعض العون من موته. إنه لنبوغ أن تقال لنا: «ليس منظركم جميلًا، هذا مؤكد! حسنًا، لن نمضي في التفاصيل! سننهي ذلك في الحال على الصليب» ولكن الكثيرين يصعدون إلى الصليب الآن فقط ليكونوا مرئيين على مبعدة، وحتى إذا كان عليهم أن يدوسوا بأقدامهم على ذلك الذي كان هنالك طيلة هذا الزمن. وقد قر رأي الكثيرين على الاستغناء عن الكرم لكي يمارسوا الإحسان. آه، الظلم، الظلم الشرير الذي

وقع عليه! إنه يعتصر قلبي.

يا للسماوات، لقد سيطرت علي العادة مرة أخرى، وأنا أكاد ألقي خطابًا في المحكمة. سامحني، وأرجوك أن تدرك أن لي أسبابي. لماذا؟ هنالك متحف على مبعدة بضعة شوارع اسمه «ربنا في الغرفة العليا» وكانوا في ذلك الحين يخصصون الغرفة العليا لمدافنهم. ثم أن السراديب تفيض بالماء هنا. واليوم – أرح ذهنك – فإن ربهم ليس في الغرفة العليا ولا في السرداب لقد رفعوه إلى منصة القاضي، في صميم قلوبهم. وهم يضربون ويحكمون باسمه. لقد تحدث بلطف إلى الفاسقة: «ولست لأتهمك!» ولكن هذا لا يهم، لأنهم يتهمون بدون أن يبرئوا أحدًا باسم الرب، ها هو ما تستحقه. الرب؟ إنه، صديقي، لم يتوقع هذا القدر. كل ما كان يريده هو أن يكون محبوبًا، ليس أكثر. هنالك بالطبع أولئك الذين يحبونه، حتى بين المسيحيين. ولكنهم ليسوا بالكثيرين، وكان قد تنبأ بذلك أيضًا. وكانت عنده روح فكهة، وقد أنكره بطرس، بطرس الجبان كما تعرف: «لست أعرف الرجل، لست أعرف ما تقول.. إلخ» حقًا، لقد ذهب بعيدًا! وصديقي يلعب بالكلمات: أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة سأشيد كنيستي.» ولا يمكن للسخرية أن تذهب إلى أبعد من هذا. ألا تعتقد ذلك؟ ولكن لا، إنهم ما يزالون ينتصرون! «أنت ترى أنه قد قال ذلك» لقد قال ذلك حقًا، وكان يعرف المسألة تمامًا. وبعد ذلك ذهب إلى الأبد، تاركًا إياهم ليحكموا ويتهموا، العفو على شفاههم والحكم في قلوبهم.

لأنه لا يمكن القول بأنه ليس هنالك إشفاق. كلا، يا إلهي، بل إننا لا نكف عن الحديث عن ذلك، وإنما لم يعد أحد يحظى بالتبرئة. وحول البراءة الميتة يزدحم القضاة، القضاة من كل الأجناس، قضاة المسيح وقضاة أعداء المسيح الذين هم مثلهم على كل حال، تجمعهم الراحة الصغيرة، لأن المرء يجب ألا يلقي باللوم كله على عاتق المسيحيين وحدهم، لأن الآخرين مشتركون أيضًا. أتعرف ما حل بأحد البيوت في هذه

المدينة التي منحت ديكارت الحماية؟ مصحة عقلية.

أجل، الهذيان العام، والاضطهاد. ونحن أيضًا مضطرون إلى ذلك بطبعنا. لقد توفرت لك الفرصة لتلاحظ أنني لم أخف شيئًا، وأما بالنسبة لك، فإنني أعرف أنك توافقني في تفكيرك. ولهذا، وما دمنا جميعًا من الحكام، فإننا جميعًا مذنبون أمام بعضنا البعض، وكلنا مسيح بطريقتنا الحقيرة، نعاني من الصلب واحدًا بعد الآخر، ويحدث ذلك دائمًا بدون علمنا. كنا سنصبح كذلك على الأقل إذا لم أكن أنا، كلامانس، قد وجدت طريقة للخروج، الحل الوحيد، الحقيقة الأخيرة..

كلا، إنني أتوقف يا صديقي العزيز، فلا تخش شيئًا! ثم إنني سأغادرك، لأننا نقف على عتبة داري، وحين يكون المرء وحيدًا ومتعبًا، فإنه يميل إلى اعتبار نفسه نبيًا. وحين يتم قول وفعل كل شيء، وهذا هو ما أنا عليه حقًا، وألجأ إلى صحراء في الصخور والضباب والمياه الآسنة – نبيًا فارغًا لأزمان رثة، إيليا بدون مسيح، تخنقني الحمى والخمر، مستندًا بظهري إلى هذا الباب الصفيق، رافعًا إصبعي نحو سماء تحفل بالتهديد، أنثر اللعنات على بشر لا قانون لهم ولا يستطيعون احتمال أي حكم. لأنهم لا يستطيعون أن يحتملوا، أيها العزيز جدًا، وهذه هي المسألة كلها أن من يتمسك بقانون لا يخشى الحكم الذي يعوضه وفق نظام يؤمن به، ولكن أشد العذابات الإنسانية هو أن يكون المرء محكومًا بدون قانون.

ومع ذلك فنحن نقاسي من هذا العذاب، والقضاة المجردون من روادعهم الطبيعية والمتسيبون يتسابقون بواسطة مهنتهم. ولهذا فعلينا أن نحاول الذهاب بأسرع مما يفعلون، أليس كذلك؟ وهو مستشفى مجانين حقيقي. وهكذا يزيد عدد الأنبياء والمشعوذين، وهم يهرعون للوصول إلى هناك بقانون جيد، أو بمنظمة لا قانون لها، قبل أن يتم هجر العالم. ولحسن الحظ، فقد وصلت! وأنا في نهاية البداية، وإنني أعلن القانون وباختصار، قاض تائب.

أجل، أجل، سأخبرك غدًا مما تتألف هذه المهنة النبيلة. ستغادر بعد غد، ولهذا فنحن على عجل من أمرنا، تعال إلى بيتي، هل ستفعل؟ اقرع الجرس ثلاث مرات فقط. ستعود إلى باريس؟ باريس بعيدة، باريس جميلة، ولم أنسها. إنني أتذكر غسقها في مثل هذا الفصل بالذات. يهبط المساء جافًا مخشخشًا فوق السطوح التي يلفعها الدخان باللون الأزرق، وتدمدم المدينة، ويلوح النهر وكأنه يجري إلى الخلف. وعند ذلك كنت أتمشى في الشوارع، كما يتمشون الآن أيضًا، كما أعرف إنهم يتجولون على غير هدى، متظاهرين بالإسراع نحو زوجة متعبة، نحو البيت العتيد... آه يا صديقي، أتعرف ما هو المخلوق المتوحد حين يتجول في المدن الكبيرة؟



الأكاذيب تُؤدي إلى الحقائق

يضايقني أن أكون في الفراش حين تصل. لا شيء، حمى خفيفة فقط أعالجها بشراب الجن. إنني معتاد على هذه النوبات. أعتقد أنني أصبت بالملاريا حين كنت البابا. كلا، إنني أمزح نصف مزاح فقط. أعرف بماذا تفكر: إنه لمن الصعب التفريق بين الصحيح والكاذب فيما أقوله لك الآن. أقر بأنك على حق. أنا نفسي.. كما ترى، كنت أعرف شخصًا كان يصنف البشر إلى ثلاثة أصناف: أولئك الذين يفضلون أن يكون لديهم ما يخفونه أكثر من أن يكونوا مضطرين إلى الكذب، وأولئك الذين يفضلون أن يكذبوا أكثر من ألا يكون لديهم ما يخفونه، وأخيرًا أولئك الذين يحبون الكذب والإخفاء معًا. سأدعك تختار وكر الحمامة الذي يناسبني.

ولكن ماذا يهمني في ذلك، ألا تؤدي الأكاذيب بالنتيجة إلى الحقائق؟ وأليست كل قصصي الصحيحة والكاذبة تميل نحو الإستنتاجات ذاتها؟ أليست كلها تعني الشيء نفسه؟ وهكذا فماذا يهم إذا كانت صحيحة أو كاذبة إذا كانت تعني في الحالتين ما كنته وما أنا عليه الآن؟ من السهل في بعض الأحيان أن نرى أعماق الكذاب بأوضح مما نرى في أعماق الرجل الذي يقول لنا الحقيقة. الحقيقة هي كالضوء، تعمي العين. والكذب، من الناحية الأخرى، هو غسق جميل يرفع من قيم الأشياء كلها. حسنًا، اخرج من الأمر بما تشاء، ولكنني سميت البابا في معسكر للأسرى.

اجلس، رجاء. إنك تتفحص هذه الغرفة عارية، حقًا، ولكنها نظيفة. أغطية للجدران، بدون أثاث أو أوان نحاسية.. ولا كتب أيضًا، لأنني تخليت عن القراءة منذ زمن. كان بيتي في يوم ما مملوءًا بالكتب نصف المقروءة. وهذا أمر يثير الاشمئزاز تمامًا،

كأولئك الناس الذين يقتطعون جزءًا من الكتب ويلقون بالباقي. على كل حال، فلم أعد أحتمل شيئًا غير الاعترافات، بيد أن مؤلفي كتب الاعترافات يكتبون بطريقة خاصة ليتجنبوا الاعتراف، لكي لا يقولوا ما يعرفونه. وحين يدعون بأنهم قد وصلوا إلى الإقرار المؤلم، عليك أن تكون حذرًا، لأنهم يبدأون بتغطية الجثة.

صدقني، فإنني أعرف ما أتحدث عنه. وهكذا فقد وضعت حدًا لذلك. لا مزيد من الكتب. ولا مزيد من الأشياء التي لا تجدي. الحاجات الضرورية فقط، نظيفة براقة كالتابوت. ثم أن هذه المفارش الهولندية الخشنة التي لا تشوه بياض أغطيتها البقع – يموت المرء فيها وكأنه مكفن مقدمًا، يلفعه الطهر.

أنت متلهف إلى سماع شيء عن تجاربي البابوية؟ لا شيء غير عادي كما تعرف. هل تتيسر لي القوة لكي أخبرك بها؟ أجل، إن الحمى تهبط. لقد كان ذلك منذ زمن بعيد. كان ذلك في إفريقيا حيث كانت الحرب مندلعة، بفضل روميل معين. ولم أكن مشتركًا فيها، كلا، لا تقلق. فقد كنت تملصت من تلك الحرب التي كانت قائمة في أوروبا. تم تجنيدي طبعًا، ولكنني لم أشترك في العمليات أبدًا، وإنني آسف لذلك نوعًا ما. ربما كان ذلك سيغير أشياء كثيرة؟ لم يكن الجيش الفرنسي في حاجة إلي في الجبهة، وإنما طلب مني فقط أن أشترك في الانسحاب. وبعد ذلك بفترة قصيرة عدت إلى باريس، والألمان. وأغرتني المقاومة التي بدأ الناس يتحدثون عنها في الوقت الذي اكتشفت فيه أنني كنت وطنيًا.

أنت تبتسم؟ إنك مخطئ، فقد اكتشفت ذلك على الرصيف في النفق، في محطة شاتليه. وكان هنالك كلب قد ضل طريقه في الممرات. وكان كبيرًا، سلكي الشعر، ترتفع إحدى أذنيه كعرف الديك، وتضحك عيناه، ويقفز ويشم السيقان المارة بقربه. وأنا أميل إلى الكلاب ميلًا مخلصًا منذ زمن بعيد. أحب الكلاب لأنها تغتفر دائمًا. وقد دعوت هذا الكلب، الذي تردد ولكنه استسلم، ومضى يحرك ذيله بحماسة وهو

يسبقني ببضع خطوات.

وفي تلك الأثناء مر بجانبي جندي ألماني شاب كان يمشي بنشاط، وحين بلغ الكلب راح يداعب شعره الكث. ولم يتردد الكلب، وإنما انطلق بمثل سرعة الجندي الألماني واختفى معه. ولاح لي من الاستياء والغضب اللذين شعرت بهما نحو الجندي الألماني أن رد الفعل الذي حدث في نفسي كان وطنيًا. فلو كان الكلب قد تبع مدنيًا فرنسيًا، فلم أكن لأفكر في ذلك قط، ولكنني بعكس ذلك تصورت ذلك الكلب الودود وهم يتخذونه تعويذة خير في معسكر ألماني، وأغضبني ذلك جدًا، وهكذا أقنعني ذلك الاختبار.

وبلغت المنطقة الجنوبية عازمًا على تتبع المقاومة، ولكنني حين وصلت إلى هناك ووجدت المقاومة، بدأت أتردد، ورأيت الأمر جنونيًا، وبعبارة أخرى رومانتيكيًا. أعتقد بصورة خاصة أن العمليات السرية لم تكن تناسب طبيعتي ولا ميلي إلى الأعالي المكشوفة. ولاح لي أنه قد طلب مني أن أقوم بالنسج في سرداب أيامًا وليال بكاملها حتى يأتي بعض المتوحشين ليخرجوني من مخبئي، ويخرجوا نسيجي ثم يضعوني في سرداب آخر ليضربوني حتى الموت. ولقد أعجبت بأولئك الذين كانوا يمارسون البطولة في الأعماق، ولكني لم أستطع أن أفعل مثلهم.

وهكذا، فقد عبرت إلى شمال إفريقيا، وفي نيتي بصورة غامضة أن أصل إلى لندن، ولكن الموقف لم يكن واضحًا في إفريقيا، ولاح لي أن الجهات المعارضة كانت على حق أيضًا، فبقيت مبتعدًا عن الأمور. يمكنني أن أرى من ملامحك أنني أتحدث بسرعة متخطيًا في رأيك التفاصيل التي تتصف بمغزى معين. حسنًا، لنقل أنني بعد أن حكمت عليك بقيمتك الحقيقية، فقد تخطيت تلك التفاصيل لكي تلاحظها بصورة أفضل. وعلى أية حال، فقد وصلت إلى تونس حيث وجدت لي صديقة لطيفة عملًا، وكانت تلك الصديقة امرأة ذكية لها علاقة بالسينما، وتبعتها إلى تونس، ولم أكتشف

عملها الحقيقي حتى كان نزول الحلفاء في الجزائر، فقد قبض الألمان عليها في ذلك اليوم وقبضوا علي أيضًا، ولكن بدون أن يتقصدوا ذلك. ولم أعرف ما حل بها، أما بالنسبة لي فلم يلحقوا بي أي أذى.

وأدركت بعد عذاب طويل أن ذلك كان إجراءً حتمته متطلبات الأمن. وسجنت قرب طرابلس في معسكر كنا فيه نعاني من العطش والبؤس أشد مما كنا نعاني من الوحشية. ولن أصف ذلك لك، فنحن أبناء منتصف القرن لا نحتاج إلى وصف مفصل لتتخيل مثل هذه الأماكن، فقبل مائة وخمسين عامًا كان الناس يتفجرون بالعاطفة نحو البحيرات والغابات، أما اليوم فإننا نتغنى بزنزانات السجون. ولهذا فسأترك الأمر لك، وأنت لا تحتاج إلا إلى بعض التفاصيل: الحر، والشمس العمودية، والذباب، والحاجة إلى الماء.

وكان هنالك فرنسي شاب معي كان يتميز بالإيمان. أجل، إنها لحكاية خرافية حقًا! من نوع دوغيسكلان، إذا شئت. وكان قد عبر من فرنسا إلى إسبانيا ليحارب. وقد حبسه الجنرال الكاثوليكي، وحين رأى أن الطعام الرديء في معسكرات فرانكو كان – إذا جاز لي أن أقول ذلك – يحظى ببركات روما، انبثقت في نفسه كآبة عميقة. فلا سماء إفريقيا، حيث هبط بعد ذلك، ولا كل المعسكر وخموله صرفاه عن تلك الكآبة. ولكن تأملاته، والشمس، غيرتاه نوعًا ما.

وفي يوم من الأيام، تحت خيمة كانت تقطر كبوتقة الرصاص الذائب، ونحن العشرة تقريبًا نتنفس بصعوبة بين أسراب الذباب، راح يكرر تذمره وشكواه ضد الرومي، كما سماه، وكان قد ألقى إلينا بنظرة وحشية، من وجه لم يكن حليقًا عدة أيام، وكان عاريًا حتى منتصفه يغطي جسمه العرق، ويضرب بأصابعه على أضلاعه البارزة. وأعلن لنا عن الحاجة إلى بابا جديد يعيش مع البؤساء بدلًا من أن يصلي على عرش. وقال أن ذلك يجب أن يحدث في أقرب فرصة ممكنة. وحدق بعينين

وحشيتين بينما كان يهز رأسه. وكرر: «أجل، في أقرب فرصة ممكنة!» ثم هدأ فجأة وقال بصوت خاو أننا يجب أن تختاره بيننا، أن نتناول رجلًا كاملًا بشروره وفضائله ونقسم على الولاء له، وكان الشرط الوحيد لذلك هو أن يحتفظ بمجتمع عذاباتنا حيًا في نفسه وفي الآخرين. وتساءل: «من هو الذي يتميز بأشد النقائص بيننا؟» واعتبرت الأمر نكتة فرفعت إصبعي، وكنت الوحيد الذي فعل ذلك. «حسنًا، لنختر جان بابتيست» كلا، لم يقل ذلك فقط، لأنه قد كان لي اسم آخر في ذلك الحين. لقد أعلن على الأقل أن ترشيح المرء لنفسه، كما كنت قد فعلت، يدل مقدمًا على تمتعي بأشد الفضائل، واقترح انتخابي. ووافق الآخرون، ضاحكين، ولكن كان في الأمر شيء من الجدية مع ذلك.

ويلوح لي أنني شخصيًا لم أكن أضحك تمامًا. والحقيقة هي أن دوغيسكلان كان قد أثر علينا. لقد اعتبرت، أولًا، أن نبيّ الصغير كان على حق، ثم، بسبب الشمس والعمل المضني، والكفاح من أجل الماء، لم يكن أمامنا مجال للسخرية. وعلى أية حال فقد مارست بابويتي عدة أسابيع، بجدية متزايدة.

مما كانت تتألف؟ حسنًا، لقد كنت مثل قائد جماعة، أو سكرتير خلية. واعتاد الآخرون، على أية حال، وحتى أولئك الذين كان ينقصهم الإيمان، على طاعتي. وكان دوغيسكلان يعاني، وكنت أعالج معاناته. ثم اكتشفت بعد ذلك أن البابوية ليست أمرًا سهلًا، وقد تذكرت هذا بالأمس بعد أن ألقيت عليك محاضرة في احتقار إخواننا. وكانت المشكلة الكبيرة في المعسكر تتمثل في توزيع الماء.

وتألفت جماعات أخرى، سياسية وطائفية، وانضم كل معتقل إلى الجماعة التي كان يفضلها. وكانت النتيجة هي أنني فضلت جماعتي، وكان هذا أول تنازل. وحتى فيما بيننا لم يكن في وسعي أن أحافظ على المساواة، وبالنسبة لحالة رفاقي، أو العمل الذي كان عليهم أن يقوموا به، كنت أمنح ميزة ما لهذا أو لذلك. ومثل هذه

الامتيازات ذات تأثير بعيد، ويمكنك أن تثق بكلمتي. بيد أنني متعب، ولست أريد أن أتحدث عن تلك الفترة بالتأكيد. دعنا فقط نقل أنني أغلقت الحلقة في اليوم الذي شربت فيه ماء رفيقي كان يموت. كلا، كلا، لم يكن دوغيسكلان، لأنه كان قد مات فعلًا، كما أعتقد، لأنه قلل حصته أكثر مما يجب. ثم إنه لو كان حيًا، فإن حبي له كان سيجعلني أقاوم الإغراء فترة أطول، لأنني كنت أحبه – أجل، كنت أحبه، أو أن الأمر يلوح لي كذلك. ولكنني شربت الماء، وهذا ثابت، بينما كنت أقنع نفسي بأن الآخرين لم يكونوا ليحتاجوا إليه أكثر من حاجة هذا الزميل الذي كان في طريقه إلى الموت على كل حال، بالإضافة إلى أنه كان من واجبي أن أحتفظ بنفسي حيًا من أجلهم.

وهكذا، يا عزيزي، تولد الإمبراطوريات والكنائس تحت شمس الموت، ولكي أصحح نوعًا ما ما قلته بالأمس، فسأخبرك بالفكرة العظيمة التي خطرت لي بينما كنت أقول كل هذا، والتي – ربما لا أكون متأكدًا – قد أكون عشتها أو حلمت بها فقط. فكرتي العظيمة هي أن المرء يجب أن يغفر للبابا، فهو، أولًا، بحاجة إلى ذلك أكثر من الآخرين. ثم أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع المرء أن يضع نفسه فيها فوق مستواه...

هل أغلقت الباب جيدًا؟ أجل؟ تأكد، رجاء.. سامحني، فلدي عقدة نفسية بشأن المزاليج. ويجب علي أن أنهض من الفراش في كل ليلة لأتاكد، إذ لا يستطيع المرء أن يثق من كل شيء كما أخبرتك. لا تظن أن هذا القلق بشأن المزلاج هو رد فعل مالك خائف. فلم أكن في الماضي لأغلق شقتي أو سيارتي. ولم أقفل بابًا على نفسي، ولم أتمسك بما كنت أملكه. والحقيقة هي أنني كنت أخجل من ملكيتي لأي شيء.

لم أبد دهشتي الصادقة في بعض الأحيان، أثناء ملاحظاتي الاجتماعية، قائلًا: «الملكية، أيها السادة، هي قتل!» ولما لم أكن واسع القلب بحيث يمكنني أن أشارك

في ثورتي رجلًا بائسًا يستحق ذلك، فقد تركتها عرضة لغزوات اللصوص المحتملة، آملًا بهذا أن أصحح الظلم بالصدفة وأكثر من ذلك، فأنا لا أملك شيئًا اليوم. وهكذا فلست قلقًا بشأن سلامتي، وإنما بشأن بنفسي وحضور ذهني. وأنا أيضًا متلهف إلى إغلاق باب الكون الصغير المقفل الذي أنا مليكه، والبابا فيه، والحاكم.

على فكرة، أرجوك أن تفتح ذلك الدولاب. أجل، انظر إلى تلك اللوحة. ألم تميز شيئًا فيها؟ إنها «القضاة العادلون». ألا يجعلك هذا تقفز؟ أيمكن أن تكون في ثقافتك ثغرات؟ ومع ذلك فإذا قرأت الصحف فستتذكر السرقة التي حدثت في عام ١٩٣٤، في كاتدرائية سانت بافون في غنت، إذ سرقت لوحة مشهورة من لوحات فان آيك كانت معلقة في المذبح. «عبادة الحمل». وقد سميت تلك اللوحة «القضاة العادلون». وكانت تمثل قضاة على ظهور الخيل آتين لعبادة الحيوان المقدس. وقد وضعت مكانها نسخة ثانية رائعة، لأنه لم يتم العثور على الأصلية أبدًا. حسنًا، ها هي. كلا، ليست لي أية علاقة بها، واحد ممن يرتادون حانة مدينة المكسيك – لقد رأيته في ذلك المساء – باعها إلى القرد مقابل قنينة، ذات مساء سكران. وقد نصحت صديقنا أولًا بأن يعلقها في مكان بارز، ولوقت طويل، بينما كانوا يبحثون عنها في أنحاء العالم، كان قضاتنا الصالحون يجلسون على عرشهم في حانة مدينة المكسيك، فوق رؤوس السكيرين والقوادين. ثم وضعها القرد، بطلب مني، هنا، في عهدتي. وقد عارض قليلًا، ولكنه خاف حين شرحت له الأمر. ومنذ ذلك الحين فإن هؤلاء القضاة المحترمين هم صحبتي الوحيدة. وقد رأيت في حانة مدينة المكسيك، فوق البار، أي فراغ خلفوا.

لماذا لم أعد اللوحة؟ آه! آه! لديك انعكاسات رجل بوليس، لديك ذلك حقًا! حسنًا، سأجيبك بما كنت سأجيب به حاكم التحقيق، إذا كان سيخطر ببال أحد أن هذه اللوحة انتهت إلى غرفتي. أولًا، لأنها لا تعود إلي وإنما إلى مالك حانة مدينة

المكسيك الذي يستحقها بقدر استحقاق أسقف غنت لها. وثانيًا، لأن جميع أولئك الذين يجتمعون حول لوحة «عبادة الحمل» لم يلاحظوا أنها نسخة زائفة، وهكذا فليس في ذلك إساءة إلى أحد. وثالثًا، لأنني أستطيع أن أسيطر بهذه الطريقة. إنهم يعرضون أمام إعجاب العالم قضاة مزيفين، بينما أنا وحدي أعرف القضاة الحقيقيين. ورابعًا لأنني أستطيع بهذا أن أحصل على فرصة لأذهب إلى السجن – فكرة خلابة على كل حال. وخامسًا لأن هؤلاء القضاة هم في طريقهم لملاقاة الحمل، لأنه لم يعد هنالك حمل ولا براءة، ولأن النذل البارع الذي سرق اللوحة كان أداة في يد العدالة الخفية التي يجب ألا يقف أحد في طريقها. وأخيرًا لأن كل شيء يصبح متوافقًا بهذه الطريقة، إذ تنفصل العدالة نهائيًا عن البراءة – الأخيرة على الصليب والأولى في الدولاب – وينفتح الطريق أمامي لأعمل وفق معتقداتي. ويمكنني بضمير مرتاح أن أمارس المهنة الصعبة، مهنة القاضي التائب التي رفعت نفسي إليها، بعد كل تلك الآمال المخيبة والمتناقضات، والآن قد حان الوقت، ما دمت ستغادر، لكي أخبرك بما أعنيه بهذه المهنة.

اسمح لي أولًا بأن أجلس معتدلًا لكي يكون في وسعي أن أتنفس بسهولة أكثر. أوه، كم أنا ضعيف! أحبس قضاتي، رجاء. أما بالنسبة لمهنة القاضي التائب فإنني أمارسها الآن. إن مركز دائرتي هو في حانة مدينة المكسيك عادة. ولكن المهن الحقيقية تتم وراء مكان العمل. حتى في الفراش، حتى مع الحمى، تجدني أعمل. ثم أن المرء لا يمارس هذه المهنة، وإنما يتنفسها دائمًا. ولا تظن أنني تحدثت إليك بهذا التفصيل مدة خمسة أيام لكي نمرح فقط.

كلا، لقد كنت أتحدث مثرثرًا مرحًا بصورة كافية في الماضي. أما الآن فإن لكلماتي هدفًا. إن هدفها هو أن تسكت الضحك، وتتجنب الحكم شخصيًا، رغم أنه ليس هنالك مهرب واضح. أليس كوننا أول من يتهم أنفسنا هو أعظم شيء يقف في

طريق خلاصنا من ذلك؟ وهكذا، فمن الضروري أن نبدأ بتوسيع الاتهام حتى يشمل الجميع، بدون تمييز، لكي نقلل منه منذ البداية.

لا أعذار هنالك البتة لأي أحد، وهذا هو مبدئي الأول. إنني أنكر النية الخيرة، والخطأ المحترم، وقلة الحصافة، والظروف المخففة. ولست لأمنح تطهيرًا أو بركة. كل شيء يتم إحصاؤه، ثم: «بلغ الأمر هذا القدر. أنت شرير، نصف إنسان نصف وحش، كذاب أصيل، تجامع الغلمان، فنان، إلخ.» هكذا. بتلك الصراحة. وفي الفلسفة كما في السياسة، أقف بجانب كل نظرية ترفض أن تهب الإنسان البراءة، وأقف بجانب كل نظام يعامله باعتباره مذنبًا. أنت ترى في، أيها العزيز جدًا، محاميًا مثقفًا من محاميّ العبودية.

والحق أنه بدون العبودية لا يمكن أن يوجد حل نهائي. وقد أدركت ذلك سريعًا. وكنت ذات يوم أتحدث عن الحرية دائمًا. كنت أضعها عند الإفطار على خبزي المحمص وأمضغها طيلة النهار، وكانت أنفاسي تعبق بالحرية مع الآخرين. وبتلك الكلمة السحرية كنت أفوز على كل من كان يعارضني، وقد جعلتها تخدم أغراضي وشهواتي وقوتي. وكنت أهمس بها في الفراش في آذان شريكاتي فيه، مما ساعدني على التخلي عنهن. وكنت أدعها تنساب... تشك! تشك!

لقد بدأت أتأثر وأضيع أطراف الحديث المعقول، ولكنني كنت في بعض الأحيان أستخدم الحرية استخدامًا أشد ابتعادًا عن المصلحة الخاصة وحتى – تصور سذاجتي فقط – أنني دافعت عنها مرتين أو ثلاثًا دون أن أذهب إلى حد الموت في سبيلها طبعًا، ومع ذلك فقد كنت أقوم ببعض المجازفات. يجب أن تغتفر لي مثل هذه الأفعال الحمقاء، فلم أكن أعرف ما كنت أفعل. لم أكن أعرف أن الحرية ليست جائزة أو وسامًا يمكن الاحتفال به بالشمبانيا. وليست هدية، أو صندوقًا من الحلويات التي تجعلك تزدرد لعابك. أوه، كلا! إنها، بالعكس، متاعب، وسباق طويل

المدى، يشترك فيه المرء وحيدًا، مستنفد القوة.

لا شمبانيا، ولا أصدقاء يرفعون أقداحهم بينما هم ينظرون إليك بود. عليك أن تكون وحدك في غرفة كئيبة، وحدك في قفص الاتهام أمام القضاة، ووحدك لتقرر أمام نفسك أو أمام حكم الآخرين. وفي نهاية كل ذلك تكون الحرية حكم المحكمة، ولهذا فإن الحرية لا تحتمل، خاصة حين تسقط صريع الحمى، أو تكون شقيًا، أو حين لا تحب أحدًا.

آه، يا عزيزي، إن عبء الأيام مخيف بالنسبة لمن هو وحيد، بدون إله، بدون سيد، ولهذا يجب على المرء أن يختار سيدًا، إلهًا بدون مميزاته المألوفة. ثم أن تلك الكلمة قد فقدت معناها، ولم تعد تستحق أن يجازف المرء بصدم أحد بها. خذ فلاسفتنا الأخلاقيين، مثلًا، الذين يغرقون في الجدية، ويحبون جارهم كثيرًا كما يحبون الآخرين – لا شيء يميزهم عن المسيحيين، عدا أنهم لا يعظون في الكنائس. فما هو سبب عدم تحولهم، في رأيك؟ الاحترام، ربما احترامهم البشر، أجل، الاحترام الإنساني.

إنهم لا يريدون أن يثيروا فضيحة، ولهذا فإنهم يحتفظون بمشاعرهم لأنفسهم. مثلًا، كنت أعرف قاصًا ملحدًا كان يصلي كل ليلة، ولكن هذا لم يمنع شيئًا: فكم تحدث ضد الله في كتبه! أي هجوم، قد يعجب البعض!! وقد رفع مفكر حر تحدثت إليه عن ذلك يديه – بدون أي قصد سيء، أؤكد لك – إلى السماء وتأوه قائلًا: «إنك لا تحدثني عن شيء جديد، إنهم جميعاً كذلك.» إنه يعتقد أن ثمانين بالمائة من كتابنا ومؤلفينا سيكتبون مدائحهم لله، لو قيض لهم أن يفعلوا ذلك دون أن يذكروا أسماءهم. ولكنهم يذكرون أسماءهم لأنهم، كما يقول، يحبون أنفسهم، وهم لا يمتدحون شيئًا لأنهم يشمئزون من أنفسهم، ولما لم يكن في وسعهم، مع ذلك، أن يمنعوا أنفسهم من إصدار الحكم، فإنهم يعوضون عن ذلك بإلقاء المواعظ.

باختصار، إن شيطانيتهم فاضلة. فترة غريبة، حقًا! ولا يدهشني أبدًا أن

الأذهان مرتبكة، وأن أحد أصدقائي، وكان ملحدًا حين كان زوجًا مثاليًا نموذجيًا، انقلب إلى الإيمان حين أصبح فاسقًا!

آه، أولئك المحتالون الصغار، الممثلون المسرحيون، المنافقون – ومع ذلك فإنهم يثيرون العطف! صدقني إنهم جميعاً كذلك حتى حين يحرقون السماء. فإذا كانوا ملحدين أو من رواد الكنائس، من سكان موسكو أو من سكان بوسطن، فإنهم جميعًا مسيحيون أبًا عن جد. ولكن يحدث أنه ليس هنالك أب، ولا حكم! إنهم أحرار، ولذلك فيجب أن يدبروا أمور أنفسهم، وما داموا لا يريدون الحرية ولا أحكامها، فإنهم يطلبون أن تضربهم على ركبهم، وهم يخترعون القواعد المرعبة، ويهرعون إلى بناء أكوام من القصب بدلًا من الكنائس. مصلحون شهداء مثل سافونارولا، حقًا. ولكنهم يؤمنون بالخطيئة فقط، ولا يؤمنون بالنقاء أبدًا. إنهم يفكرون في النقاء، حقًا. النقاء هو ما يطلبونه – القبول، والاستسلام، والسعادة، وربما، لأنهم عاطفيون أيضًا، الخطبة، والعروس العذراء، والرجل المستقيم، وموسيقى الأرغن. خذني أنا، مثلًا، وأنا لست عاطفيًا – أتعرف بم كنت أحلم؟ الحب الكامل للقلب والجسد بأكملهما، ليلًا ونهارًا، في عناق لا ينتهي، المتعة الحسية والاستثارة الذهنية – ليستمر ذلك كله خمس سنوات وينتهي بالموت. يا للتعاسة!

وهكذا، وبسبب عدم وجود خطبة أو حب غير منقطع، فإن الأمر يكون زواجًا، زواجًا وحشيًا، مع القوة والسوط. والأمر الجوهري هو أن كل شيء يجب أن يكون بسيطًا، كما يكون بالنسبة للطفل، وإن كل شيء يجب أن يكون منظمًا، وإن الخير والشر يجب أن يشار إليهما بصورة عرفية، أي بوضوح. وأنا أوافق على ذلك، مهما كنت صقليًا أو جاويًا، وحتى لو لم أكن مسيحيًا على الإطلاق، رغم أنني أشعر بالصداقة نحو أول المسيحيين. ولكنني عرفت على جسور باريس أنني، أنا أيضًا، كنت أخشى الحرية. وهكذا فهيا إلى السيد، مهما يكن، ليحل محل قانون السماء. «أبانا يا

من أنت هنا مؤقتًا... مرشدينا، سادتنا القساة قسوة بديعة، آه، أيها القادة القساة المحبوبين...» باختصار، أنت ترى أن المسألة الجوهرية هي ألا نكون أحرارًا وأن نطيع تائبين من هو أشد نذالة منا. وحين نكون مذنبين جميعنا، فإن ذلك سيكون ديمقراطية. دون أن نذكر، يا صديقي العزيز، أننا يجب أن ننتقم لاضطرارنا إلى الموت وحيدين. الموت توحد، بينما أن العبودية جماعية. فالآخرون يحصلون على نصيبهم، أيضًا، في الوقت نفسه الذي نفعل فيه ذلك – وهذا هو المهم. نجتمع أخيرًا، ولكن على ركبنا، ونحن نحني رؤوسنا.

أليس أفضل كذلك أن نعيش كالآخرين في العالم، وكذلك، أليس من الواجب على بقية العالم أن تكون مثلي؟ إن التهديد والسمعة السيئة والبوليس هي الروادع التي توجب ذلك التشابه. وحين أكون محتقرًا، واقعًا في الفخ، مضطرًا، فسيكون في وسعي أن أكشف عن قيمتي، وأستمتع بما أنا هو، وأكون طبيعيًا أخيرًا.

ولهذا، أيها العزيز جدًا، وبعد أن قدمت احتراماتي إلى الحرية بكل وقار، فقد قررت أنني يجب أن أسلمها لأي شخص يأتي في الطريق، وأنا أعظ في كنيستي في حانة مدينة المكسيك بقدر وسعي. وأدعو الناس الطيبين ليطيعوا السلطة ولينصاعوا بخضوع لراحة العبودية، حتى إذا كان علي أن أقدمها إليهم باعتبارها الحرية الحقيقية.

ولكنني لست سخيفًا، إنني أدرك تمامًا أن العبودية لا تتحقق مباشرة. إنما ستكون من بركات المستقبل. وهذا هو كل شيء. أما في الوقت الحاضر فعلي أن أحتمل هذا الحاضر وأجد حلًا مؤقتًا على الأقل، ولهذا فيجب علي أن أجد وسيلة أخرى لتوسيع الحكم حتى يشمل الجميع لكي أجعله أخف عبئًا على عاتقي. لقد وجدت الوسيلة أفتح النافذة قليلًا، أرجوك. إن الجو حار جدًا. ليس كثيرًا، لأنني أشعر بالبرد أيضًا. إن فكرتي بسيطة ومثمرة معًا. كيف يمكن إشراك الجميع لكي يكون لي الحق في أن أجلس مرتاحًا في الخارج؟ أيجب علي أن أصعد إلى المنبر؟

كالكثيرين من معاصري المشهورين، وألعن الإنسانية؟ ذلك خطر جدًا!

ذات يوم، أو ذات ليلة، ينبثق الضحك دون سابق إنذار، ويعود الحكم الذي تصدره على الآخرين ليصفع وجهك، محدثًا بعض الأذى. ثم ماذا؟ إنك تسألني. حسنًا، هنا النبوغ، لقد اكتشفت أننا بينما نكون بانتظار السادة الذين يحملون قضبانهم، يجب علينا، مثل كوبرنيكوس، أن نعكس الأمور لنكسب، وبقدر عجز المرء عن اتهام الآخرين دون أن يكون في ذلك حكم مباشر على نفسه، فإن عليه أن يخضع نفسه ليكون له حق الحكم على الآخرين. وبقدر كون كل قاض سينتهي به الأمر يومًا إلى أن يكون تائبًا، فعليه أن يقطع الطريق في الاتجاه المعاكس ويمارس مهنة التوبة ليكون في وسعه أن ينتهي إلى القضاء. هل تتتبع ما أقول؟ حسنًا. ولكن، لكي أوضح ما أريد، سأخبرك بكيفية العمل.

لقد أغلقت دائرتي القانونية أولًا، وغادرت باريس، وسافرت. وهدفت إلى الاستقرار تحت اسمي الجديد في مكان ما تتوفر لي فيه ممارسة المهنة. هنالك أماكن عديدة في العالم، ولكن الصدفة والسهولة والسخرية، وكذلك الحاجة إلى ذلة معينة، جعلتني أختار عاصمة المياه والضباب، التي تملؤها القنوات وتزدحم بالناس، وتزورها أقوام من كل زوايا الأرض. وأقمت دائرتي في حانة في حي البحارة. إن الزبائن الذين تجدهم في مدينة الميناء يكونون متنوعين. فالفقراء لا يذهبون إلى المناطق المترفة، في حين أن الناس الكرام يذهبون دائمًا، بل مرة واحدة على الأقل، كما رأيت بنفسك، إلى الأماكن المشبوهة. إنني أنتظر البورجوازيين على الأخص، البورجوازيين الضالين، لأنني أحصل معهم على أفضل النتائج، وكالفنان الموهوب الذي يعزف على آلة كمان نادرة، أستطيع أن أخرج منهم بأدق الأصوات.

وهكذا فقد مارست مهنتي المفيدة في حانة مدينة المكسيك فترة من الزمن. إنها تتألف، أولًا، كما تعرف من التجربة، من الإغراق في الاعتراف للآخرين قدر

استطاعتي. إنني أتهم نفسي طولًا وعرضًا. وليس ذلك بالأمر الصعب، لأنه قد توفرت لي ذاكرة الآن. ولكن دعني أذكر لك أنني لا أتهم نفسي اتهامًا عاديًا، ولا أضرب على صدري. كلا، إنني أبحر بمهارة، مضاعفًا من وضوح الموضوع وشذوذه أيضًا – باختصار، إنني أكيف كلماتي وفقًا للمستمع، وأجعله يراني بصورة أفضل. وأنا أمزج ما يخصني بما يخص الآخرين وأختار النواحي المشتركة بيننا، والتجارب التي عانيناها والنقائص التي نتميز بها – بعبارة أخرى، رجل الساعة كما يتضح في شخصي وفي الآخرين. وبكل ذلك أرسم لوحة هي صورة الجميع، وليست صورة فرد بالذات. قناع، باختصار، كأقنعة الكرنفالات التي هي كوجوه الناس في الحياة، وتتميز عنهم في الوقت نفسه، بحيث أنها تجعل المرء يقول: «لماذا؟ بل لا بد أنني كنت قد قابلته في مكان ما!» وحين تنتهي الصورة، كما انتهت في هذا المساء، فإنني أعرضها بأسف شديد: «هذا، يا للتعاسة، هو أنا!» وينتهي اتهام المدعي العام، وفي الوقت نفسه فإن الصورة التي أعرضها على معاصري تصبح مرآة.

إنني أقف، مغطى بالرماد، أنتف شعري، وتمزق وجهي المخالب، ولكن بعينين نافذتين أمام البشرية كلها، أعيد على مسامعها فضائحي بدون أن أحول بصري عن التأثير الذي أحدثه، وأقول: «لقد كنت أحقر الجميع» ثم أتحول من «أنا» إلى «نحن»، دون أن أجعل أحدًا يدرك ذلك. وحين أصل إلى: «وهكذا نحن»، أكون قد أتممت اللعبة، وبذلك أبعدهم عني. إنني مثلهم حقًا، ونحن في الحساء معًا. ومع ذلك، فلدي تفوق يكمن في أنني أعرف ذلك، وهذا يمنحني الحق في الكلام. أنت ترى ميزتي بلا شك، فكلما أكثرت من اتهام نفسي، زاد حقي في اتهامك. بل أكثر من ذلك إنني أستفزك إلى اتهام نفسك، وهذا يحررني من بعض العبء.

آه، يا عزيزي، نحن مخلوقات غريبة بائسة، وإذا كنا سننظر إلى ماضي حياتنا فقط، فلن نعدم المناسبات التي تدهشنا وترعبنا. حاول فقط، وسأستمع حقًا إلى

اعترافك بشعور أخوي عظيم.

لا تضحك! أجل، إنك زبون صعب. لقد عرفت ذلك في الحال. ولكنك ستصل إلى ذلك حتمًا. الآخرون معظمهم أكثر عاطفية من كونهم أذكياء، وهم يستسلمون في الحال، أما مع الأذكياء، فإن الأمر يستغرق زمنًا. يكفي أن أشرح لهم الطريقة بصورة كاملة. إنهم لن ينسوها، وإنما سيتأملون فيها. وهم سرعان ما يستسلمون، معتبرين نصف الأمر لعبة، بينما يكون نصفه الآخر اضطرابًا عاطفيًا. ويقولون كل شيء. وأنت لست ذكيًا وحسب، وإنما تلوح معتادًا. أتعترف، على كل حال، بأنك تلوح اليوم أقل ارتياحًا من نفسك مما كنت عليه قبل خمسة أيام؟

والآن فسأنتظر منك أن تكتب لي أو تعود إلي، لأنك ستعود، أنا واثق من ذلك! وستجدني على حالي دون تغيير. ولماذا أتغير؟ ما دمت قد عثرت على السعادة التي تناسبني؟ لقد قبلت الازدواج بدلًا من أن أضطرب بشأن ذلك. بالعكس، لقد استقر الأمر بي على الازدواج، وعثرت فيه على الراحة التي كنت أبحث عنها في حياتي، لقد كنت مخطئًا حين أخبرتك بأن الأمر الجوهري هو تجنب الحكم.

الأمر الجوهري هو أن يكون المرء قادرًا على السماح لنفسه بكل شيء، حتى إذا كان عليه من وقت لآخر أن يعترف بفضائحه بصوت عال. إنني أسمح لنفسي بكل شيء ثانية، وفي هذه المرة، بدون الضحك. لقد غيرت طريقي في الحياة، وقد عدت إلى حب نفسي والاستفادة من الآخرين. وإنما يجعلني اعترافي بجرائمي أبدأ ثانية، أخف قلبًا فأذوق متعة مزدوجة، أولًا بطبيعتي، وثانيًا بتوبتي الساحرة.

ومنذ أن وجدت الحل، صرت أستسلم لكل شيء، للنساء، للفخر، للسأم، للاستياء، وحتى للحمى التي أشعر بها تسيطر علي سيطرة ممتعة في هذه اللحظة. فقد سيطرت في النهاية، ولكن إلى الأبد. لقد عثرت مرة أخرى على ارتفاع كنت الوحيد الذي تسلقه، ويمكنني منه أن أحكم على الجميع، وفي الفترات الطويلة، في ليلة جميلة

حقًا، أسمع أحيانًا ضحكة بعيدة، فأشك ثانيةً. ولكنني أسحق كل شيء سريعًا، الناس والأشياء، تحت عبء ترددي، وأنطلق إلى أعلى في الحال. وهكذا فسأنتظر احتراماتك في حانة مدينة المكسيك زمنًا كافيًا.

ولكن ابعد هذا الغطاء، إنني أريد أن أتنفس. ستأتي، أليس كذلك؟ سأريك تفاصيل طريقتي، لأنني أشعر بالود نحوك. ستراني أعلمهم ليلة بعد ليلة أنهم أشرار. وفي هذا المساء سأستمر. إنني لا أستطيع الاستغناء عن ذلك ولا أستطيع أن أحرم نفسي من تلك اللحظات التي ينهار فيها أحدهم بمساعدة الكحول، ويضرب على صدره. ثم أزداد طولًا، أيها العزيز جدًا، أزداد طولًا وأتنفس بحرية، لأنني فوق الجبل، ويمتد السهل أمام عيني. كم هو مسكر أن يشعر المرء وكأنه الله الأب، وأن يعطي شهادات نهائية بالطبائع والعادات السيئة.

إنني أجلس على عرش بين الملائكة السيئين في قمة السماء الهولندية وأراقبها وهي تصعد نحوي، خارجة من الضباب والماء، حشود القيامة! إنها ترتفع ببطء وأنا أرى طلائعها، وها هو أول القادمين، إنني أرى وجهه الحائر الذي يخفي نصفه بيده كآبة الحالة العامة واليأس من القدرة على الخلاص منها. أما بالنسبة لي، فإنني أشفق بدون أن أمنح الطهر، وأتهم بدون أن أغتفر، وفوق ذلك كله، فإنني أشعر أخيرً بأنني معبود!

أجل، إنني أتحرك. كيف كنت سأبقى في الفراش كالمريض الطيب؟ يجب أن أكون أعلى منك، وأفكاري ترفعني. في مثل هذه الليالي، أو الصباح (لأن السقطة تحدث في الفجر) أخرج وأتمشى بنشاط على طول القنوات، وتصبح طبقات الريش في السماء الباهتة أخف، وتصعد الحمائم قليلًا إلى الأعلى، ويعلن نور وردي فوق السطوح يومًا جديدًا من صنعي. ويقرع جرس أول عربة ترام في شارع دامراك، في الهواء الرطب، معلنًا يقظة الحياة في طرف أوروبا هذه، في اللحظة ذاتها التي تنزلق فيها

بألم مئات الملايين من رعاياي من الفراش، والمذاق المر في أفواهها، لتذهب إلى عمل لا متعة فيه. وبعد ذلك أحلق فوق هذه القارة كلها التي هي تحت سيطرتي دون أن تعرف ذلك، وأشرب النور المتألق الذي ينثره النهار، سكرانًا بالكلمات الشريرة، وأكون سعيدًا – أقول لك أنني سعيد ولن أدعك تعتقد أنني لست سعيدًا. إنني سعيد حتى الموت! أوه، الشمس، المصاطب، والجزر التي هي في طريق الرياح التجارية، والشباب الذي تدفع ذكراه بالمرء إلى اليأس!

سأعود إلى الفراش، سامحني. أخشى أن أكون مستنزفًا، ومع ذلك فلست أبكي. إن المرء ليتساءل أحيانًا متشككًا في الحقائق حتى حين يكون قد اكتشف أسرار الحياة الطيبة. إن حلي ليس الحل المثالي حقًا. ولكنك حين لا تحب حياتك، وحين تعرف أنك يجب أن تستبدلها بحياة أخرى، لا يكون أمامك أي اختيار، أليس كذلك؟ ماذا يستطيع الإنسان أن يفعل ليكون شخصًا آخر؟ مستحيل. على المرء ألا يكون أي شخص، وأن ينسى نفسه ويكون شخصًا آخر على الأقل. ولكن كيف؟ لا تمل هكذا علي. إنني مثل ذلك الشحاذ العجوز الذي لم يترك يدي في ذات يوم حين كنت في شرفة إحدى المقاهي، إذ قال: «آه يا سيدي، ليس لأنني لست طيبًا، وإنما أضعت أنت طريق النور« أجل، لقد أضعنا طريق النور، والصباح، والبراءة المقدسة التي يمتاز بها أولئك الذين يغتفرون لأنفسهم.

انظر، إن الثلج يتساقط! أوه، يجب أن أخرج. أمستردام قائمة في الليل الأبيض، والقنوات المظلمة تحت الجسور الصغيرة المغطاة بالثلج، والشوارع الخالية، وخطواتي المتعثرة – سيكون هنالك نقاء رغم كونه عابرًا، قبل وحل الغد. انظر إلى الندف الكبيرة وهي تنهمر على زجاج النافذة. لا بد أنها الحمائم بالتأكيد، قررت أخيرًا أن تهبط، الحمائم الصغيرة العزيزة، إنها تغطي المياه والسطوح بطبقة كثيفة من الريش، إنها تخفق بأجنحتها على كل نافذة، أي غزو! دعنا تأمل أنها آتية بأخبار

طبية. سيخلف الجميع؟ إيه؟ – وليس المختارون فقط. وسيتم اقتسام الممتلكات والمشاق، وأنت مثلًا منذ هذا اليوم، ستنام كل ليلة على الأرض من أجلي، لعبة الصيد كلها، أين؟ هيا، اعترف بأنك ستندهش إذا جاءت عربة من السماء لتحملني بعيدًا، أو إذا احترق الثلج فجأة. أنت لا تصدق ذلك، ولا أنا. ولكنني يجب أن أخرج.

حسنًا، حسنًا، سأهدأ. لا تنهض، اجلس! لا تأخذ تدفقي العاطفي أو هذياني مأخذًا جديًا. إنني أتحكم في ذلك. قل لي أنك تتحدث إلي عن نفسك الآن. وسأكتشف هل استطعت أن أحقق واحدًا من أهداف اعترافي الطويل. إنني في الواقع آمل دائمًا أن محدثي سيكون من رجال البوليس وأنه سيقبض علي بتهمة سرقة «القضاة العادلين» أما بالنسبة للأمور الأخرى – هل أنا على حق؟ – فلا أحد يستطيع أن يقبض علي. أما بالنسبة للسرقة، فإنها تقع ضمن نصوص القانون، وقد أعددت كل شيء لكي أكون شريكًا في الجريمة: إنني أحتفظ بتلك اللوحة وأريها لكل من يريد أن يراها، ستقبض علي إذن؟ ستكون هذه بداية طيبة. ربما سيكون في الوسع الاهتمام بالأمور الأخرى بنتيجة ذلك. سيفصل رأسي عن جسدي، مثلًا، ولن أخشى الموت بعد ذلك، وسأخلص.

فوق الحشد المجتمع، سترفع رأسي الذي لا يزال دافئًا، لكي يكون في وسعهم أن يميزوا أنفسهم فيه، وأستطيع أنا أيضًا أن أسيطر ثانية – مستثنى. وسيكون كل شيء تمامًا، كان علي أن أختتم سرًا مهنتي كنبي مزيف يصرخ في القفار ويرفض أن يخرج.

ولكنك لست من رجال البوليس بالطبع، وهذا سيكون سهلًا. ماذا؟ آه، لقد شككت في ذلك كما ترى. كان ذلك الرد الغريب الذي شعرت به نحوك في محله إذن. أنت تمارس مهنة المحاماة الشريفة في باريس؟ لقد فكرت في أننا قد نكون من

جنس واحد. ألسنا متشابهين جميعًا، حديثنا المستمر دون أن يكون لنا سامع، وفي بحثنا الأبدي عن نفس المسائل رغم أننا نعرف الجواب مقدمًا؟ أرجوك أن تخبرني إذن بما حدث لك ذات ليلة على أرصفة السين وكيف استطعت أن تفلح في عدم المجازفة بحياتك، وأنت نفسك تقول الكلمات التي ظلت سنوات طويلة تتردد في ليالي، والتي سأقولها أخيرًا عبر فمك؟ «آه، أيتها الشابة، ألقي بنفسك إلى الماء ثانية لكي تتوفر لي فرصة أخرى أنقذ فيها نفسينا معًا!» فرصة أخرى، إيه، أي اقتراح! افترض فقط، أيها السيد العزيز، أننا نؤخذ بما نقول حرفيًا! كان علينا أن نمضي في ذلك حتى النهاية. بررررر..! الماء بارد جدًا! ولكن دعنا لا نقلق! فات الوقت الآن، وسيفوت الوقت دائمًا لحسن الحظ!



الفهرس